www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

بسم الله الرحمن الرحيم

و کانت صدیقه : روایه

کاتب:

سید کمال

نشرت فی الطباعة:

انصاریان

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
و کانت صدیقه : روایه ----- ۷
اشارة ----- ۷
القسمت ۰۱ ----- ۷
القسمت ۰۲ ----- ۸
القسمت ۰۳ ----- ۹
القسمت ۰۴ ----- ۱۰
القسمت ۰۵ ----- ۱۱
القسمت ۰۶ ----- ۱۲
القسمت ۰۷ ----- ۱۳
القسمت ۰۸ ----- ۱۴
القسمت ۰۹ ----- ۱۵
القسمت ۱۰ ----- ۱۶
القسمت ۱۱ ----- ۱۷
القسمت ۱۲ ----- ۱۸
القسمت ۱۳ ----- ۱۹
القسمت ۱۴ ----- ۲۰
القسمت ۱۵ ----- ۲۱
القسمت ۱۶ ----- ۲۲
القسمت ۱۷ ----- ۲۳
القسمت ۱۸ ----- ۲۴
القسمت ۱۹ ----- ۲۶
القسمت ۲۰ ----- ۲۷

القسمت ۲۱ ----- ۲۸
القسمت ۲۲ ----- ۲۹
القسمت ۲۳ ----- ۳۰
القسمت ۲۴ ----- ۳۱
القسمت ۲۵ ----- ۳۲
القسمت ۲۶ ----- ۳۳
القسمت ۲۷ ----- ۳۴
القسمت ۲۸ ----- ۳۵
القسمت ۲۹ ----- ۳۷
القسمت ۳۰ ----- ۳۷
القسمت ۳۱ ----- ۳۸
القسمت ۳۲ ----- ۴۰
القسمت ۳۳ ----- ۴۱
القسمت ۳۴ ----- ۴۲
القسمت ۳۵ ----- ۴۳
القسمت ۳۶ ----- ۴۳
القسمت ۳۷ ----- ۴۵
القسمت ۳۸ ----- ۴۶
القسمت ۳۹ ----- ۴۷
القسمت ۴۰ ----- ۴۸
تعریف المرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۴۸

و كانت صديقه : روايه

اشارة

سرشناسه : سيد، كمال ۱۳۳۶ - عنوان و نام پديدآور : و كانت صديقه : روايه كمال السيد. مشخصات نشر : قم موسسه انصاريان ۱۴۱۶ق = ۱۹۹۵م = ۱۳۷۴. مشخصات ظاهری : ۲۳۵ص. شابک : چاپ دوم ۹۶۴-۴۳۸-۱۶۱-۰ ؛ چاپ سوم ۹۶۴-۴۳۸-۱۸۱-۰ يادداشت : چاپ دوم ۱۴۲۱ق= ۱۳۷۹. يادداشت : چاپ سوم ۱۴۲۴ق = ۲۰۰۳م = ۱۳۸۲. موضوع : فاطمه زهرا (س)، ۸؟ قبل از هجرت - ۱۱ق -- سرگذشتنامه رده بندی كنگره : BP۲۷/۲/س۸۷و۸ رده بندی ديويی : ۲۹۷/۹۷۳ شماره كتابشناسی ملی : م۷۵-۶۶۵۰

القسمت ۰۱

استيقظت «خديجة» و شعور غريب بالفرحة و الأمل، ينبعث فی نفسها، انبعاث النور فی الظلام... و ربّما فكرت فی سبب ما لهذه الموجة الهانئة من الفرح... لم تكن تدری سبباً واضحاً لذلك.. فقد كان كل ما يحيطها يفجّر كوامن الحزن بل و يبعث على المرارة و اليأس... هاهی تشهد كيف تصب قريش العذاب على زوجها.. تضطهده.. تسخر منه.. و تكذّبه و هو الصادق الأمين. تساءلت فی نفسها: لعلّه الحمل الجديد و الشجرة المثمرة عند ما تحمل يعنی الربيع و الأمل و الحياة. ولكن كيف و قد أخذ اللّه «عبداللّه والقاسم» من قبل. و تركا فی قلبها حزناً عميقاً كجرح لايندمل، ولكن لا... لا انها تشعر بالأمل.. يكبر فی أعماقها.. ينمو و يتفتّح كوردة فی الربيع. و حملها هذه المرّة عجيب خفيف تكاد تطير به.. تشعر بالسكينة [صفحه ۱۰] تترقرق فی قلبها كنبع بارد.. كما لاحظت شيئاً آخر... مسحة من نور شفّاف تطوف فوق وجهها... و شيئاً آخر أيضاً.. انّها لم تعد تشتهی طعاماً سوی الرطب و العنب. أكملت خديجة ارتداء حلّة الخروج.. فزوجها ينتظر، و «علیّ» الفتی الذی يتبع ابن عمه... يلازمه كظله، هو الآخر ينتظر. انطلق الثلاثة.. أخذوا سمتهم نحو الكعبة مهوی الأفئدة و بيتاً بناه ابراهيم لربّه. الكعبة تنشر ظلالها الوارفة فوق الأرض.. و السكينة تغمر المكان ما خلا حوار هادئ لرجال جالسين حول «زمزم» كان أحدهم يراقب مشهداً بدا له عجيباً.. كان يرنو إلی باب «الصفا». وقد طلع رجل بين الأربعين و الخمسين من عمره.. أقنی الأنف.. أدعج العينين كأنه قمر يمشی على الأرض و إلی يمينه فتی يشبه شبلاً و خلفهما امرأة قد سترت محاسنها. قصد الثلاثة «الحجر الأسود» فاستلموه ثم طافوا البيت سبع مرّات؛ بعدها وقف الرجل و الفتی إلی يمينه و المرأة خلفهما. هتف الرجل الأدعج العينين: اللّه أكبر فردّد الفتی وراءه: اللّه أكبر وكذا المرأة خلفهما... ركع الرجل الأزهر الوجه ثم سجد والمرأة والفتی يتابعانه. [صفحه ۱۱] وحول «زمزم» تساءل رجل قدم مكة حديثاً: - هذا دين لم نعرفه من قبل. أجاب رجل هاشمی: - هذا ابن أخی محمّد بن عبداللّه و امرأته خديجة وهذا الفتی علی بن أبی‌طالب و ما على وجه الأرض من يعبد اللّه بهذا الدين إلّا هؤلاء الثلاثة. ساد الوجوم وجوه الرجال وهم يراقبون موكباً صغيراً يغادر الكعبة حتی توارى خلف جدران البيوت. و تمرّ الأيام و تمرّ الشهور و يكبر الحمل.. و يتألّق وجه خديجة بالنور.. يشتدّ سطوعاً... و تبدأ آلام المخاض. و بين صخور «حراء» كان محمّد يتأمل مكة، يفكر فی مصير العالم و طريق الإنسان. بدا وجهه حزيناً كسماء مزدحمة بالغيوم... يفكّر فی قومه.. يحزن من أجلهم.. يريد أن يفتح عيونهم على النور الذی اكتشفه فوق الجبل، لكنّهم صدّوا عنه... اعتادوا حياة الخفافيش فی الظلام... أعرضوا عن ملكوت السماوات.. فسقطوا فی حضيض الأرض... ضاعوا بين عناصر التراب والطين. لن يدعوا شيئاً إلّا و فعلوه.. آذوه.. سخروا منه.. عيّروه. قالوا: [صفحه ۱۲] إنه ساحر كذّاب.. أبتر سيموت و يموت ذكره.. فليس له ولد. شعر بسكين حادّة تغوص فی قلبه و هو يتذكّر سخريتهم منه.. ينادونه بالأبتر. النبی يفكّر فی قومه حزيناً حزن نوح و ابراهيم و موسی و عيسی بن مريم. آخر الأنبياء يفكّر غير ملتفت لما يجری حوله. تكهرب الفضاء.. غلالة شفافة كالضباب تملأ المكان.. و قد غمر الصمت جميع الأشياء.. اختفت الأصوات.. تلاشت و لم يعد «محمّد» يسمع

شيئاً سوى كلمات.. تنفذ فى أعماقه نفوذ النور فى المياه الرائقة.. كلمات مؤثّره عميقة جفّ لها ريقه.. تصبب لها جبينه.. فبدا كحبّات لؤلؤ منثور.. الكلمات تضيء فى أعماقه كالنجوم: - إنّا أعطيناك الكوثر. فصلِّ لربِّك و انحر. أن شانئك هو الأبتر. و انقلب الرسول إلى بيته فرحاً.. و لما دخل على زوجته وجدها هى الأُخرى فرحة.. تنظر اليه بعينين تفيضان حبّاً.. هتفت بصوت يشوبه اعتذار: - إنى وضعتها أُنثى و ليس الذكر كالأُنثى. تمتم النبى و هو يحتضن هدية السماء بحب: - إنّا أعطيناك الكوثر.. اسميها فاطمة.. ليفطمها اللّه من الشرور. [صفحه ۱۳] كلؤلؤة فى حنايا صدفة بدت فاطمة بفمها الدقيق.. بعينيها الواسعتين كنافذتين تطلّان على عالم واسع.. عالم يموج بالصفاء والسلام. أضاء الأمل منزلاً صغيراً من منازل مكّة.. و تفتّحت فاطمة للحياة كما تتفتح الورود و الرياحين؛ و نمت فى أحضان دافئة تنعم بقلبين ينبضان حبّاً لها و بنظرات تغمرها حناناً و رأفة. و كبرت فاطمة.. نمت و بدأت تعى شيئاً ممّا يجرى حولها تنظر إلى أمّها يغمره الحزن.. و ربّما شعرت بمرارة تعتصر قلب أبيها و هى لا تعرف بعد سبباً لذلك.. تهفوا نحو أمّها تقبل أباها.. فتعود البسمة إلى الوجهين الحزينين... و تشرق الفرحة من جديد كما تشرق الشمس من بين الغيوم لتغمر الأرض بالدفء والنور والأمل. و تمرّ الأيام.. و تنمو فاطمة.. و يعصف القدر بقسوة.. وتجد الطفلة نفسها بين ذراعى والدتها فى وادٍ غير ذى زرع.. حيث أيام الجوع و الخوف و الحرمان.. تصغى إلى أنّات المظلومين.. و تتأمّل سيوفاً مسلولة فى الظلام. كبرت فاطمة فى الشِعب. فطمت اللبن و درجت فوق الرمال. ومرّ عام. ومرّ بعده عامان آخران.. فجأة اختطف القدر امّها.. فقدت نبعاً ثرّاً من الحبّ... [صفحه ۱۴] فاطمة تبحث عن أمّها. تسأل أباها الحزين. - أبه أين أُمى؟ ويجيب الأب المقهور و هو يحتضن ذكراه الغالية: - أمّك فى بيت من قصب لا تعب فيه و لا نصب. تلوذ بالصمت.. تفكّر فى أمّها. عيناها تبحثان عن نبع سماوى ولكن دون جدوى. كبرت فاطمة فى زمن الحرمان.. فى زمن الحصار.. فى زمن اليتم.. فى زمن القهر.. لهذا نشأت الطفلة نحيلة القوام كغصن كسير.. رسم القهر فى عينيها الواسعتين لوحة حزينة منظراً ساكناً يغمره الصمت.. تفكّر.. تنطوى على نفسها فى استغراق يشبه صلاة الأنبياء، نشأت فاطمة فى زمن الجدب.. فغدا عودها صلباً ضارباً فى الأرض جذوراً بعيدة الغور.. فبدت أكبر من سنّها و نهضت تملأ فراغاً هائلاً أحدثه رحيل والدتها.. نهضت سيّدة صغيرة.. أمّاً رؤوماً لوالدها الذى أضحى وحيداً. و تمرّ الأيام.. و ذات مساء خرج المحاصرون فى «الشعب» إلى مكّة. عادوا إلى ضجيج الحياة لتبدأ فصول أُخرى من تاريخ مثير يزخر بالأحداث.. منذ الساعة التى التقت فيها السماء بالأرض فى غار حراء. [صفحه ۱۵]

القسمت ۰۲

ملأ رغاء الجمال فضاء مكة، فقد آبت القوافل التى انطلقت إلى اليمن، فى رحلة الشتاء؛ كان الجو بارداً و السماء تزدحم بغيوم رمادية؛ و صخور الجبال الجرداء بدت و كأنها تتضرع إلى السحب تنشدها قطرات المطر. و شيئاً فشيئاً خفتت الأصوات و آبت الطيور إلى أو كارها ساعة المغيب، و بدا البيت خالياً موحشاً كصحراء مقفرة؛ كانت «فاطمة» مستغرقة فى تفكير عميق تطوف فى خيالها سورة «مريم» تلك الفتاة البتول التى انقطعت عن العالم فى صومعتها تعبد اللّه تتبتل اليه وحيدة.. تستكشف آفاق السماء متخففة من أثقال الأرض. جلست فاطمة ترقب أوبة أبيها، و بدا المنزل خالياً من كل شيء «لا ـ زينب، و لا ـ رقية» و لا ـ «ام كلثوم» ذهبن ثلاثتهن إلى بيوت أزواجهنّ؛ زينب استقرت فى بيت «أبى‌العاص بن الربيع» و أُم [صفحه ۱۶] «جميل» اختطفت «رقية» و «أُم كلثوم» لولديها «عتبة» و «عتيبة»؛ و كل هذا يهون أمام مصيبة كادت أن تعصف بكلّ شيء.. لقد رحلت أمّها.. «خديجة» ذلك النبع المتدفق حناناً و حبّاً و دفئاً.. - لكِ اللّه يا أمّى.. ما كادت أعوام الحصار تمضى بأيّامها الصعبة ولياليها المضنية حتى ودّعتى الدنيا ليبقى والدى وحيداً و هو أشدّ الناس حاجة إلى من يؤازره ويقف إلى جانبه.. ولكن يا أمّاه سأجهد نفسى لأملأ الفراغ الذى جثم على البيت بعد رحيلك. سأكون له بنتاً و أُمّاً.. سأمسح دموعه بيدين تشبهان يديك و سأبتسم له كما كنتِ تضيئين قلبه بابتسامتك. ولكن يا أمّاه أنا ما أزال صغيرة ليتك صبرت قليلاً، أبى كان قويّاً بك.. و كان يتحدى العاصفة بعزم «أبى طالب» شيخ البطحاء تكفله صغيراً وحماه كبيراً غير انكما تركتماه وحيداً و استرحتما من هم الدنيا و غمّها و حقّ لكما أن تستريحا و قد عصفت بكما النوائب من كل مكان و سدّد لكما الدهر سهاماً

مسمومة و حراباً. أجل يا أمى... لقد اظلمت الدنيا نشر المساء ستائره السوداء و هذا عامنا عام حزن.. ها أنا انتظر أوبة أبى.. أبى الذى يريد تبديد الظلام بنور الإسلام.. ولكن مكّة ترفض ذلك.. تتمنع و فيها من يحبّ حياة الظلمات كما الخفافيش لاتهوى النور و لا تحبّ النهار. [صفحه ۱۷] سمعت «فاطمة» خطىً هادئة كنبضات قلبٍ يخفق أملاً، خطىً تعرفها فاطمة.. لهذا هبّت كفراشة تهوى إلى النور بقوامها النحيل بعينيها الواسعتين سعة الصحراء وبابتسامتها المشرقة بالأمل... ولكن لم تسمرت «فاطمة» فى مكانها كأن خنجراً يطعن قلبها طعنة نجلاء.. عاد أبوها حزيناً بدا وجهه كسماء مدلهمة بسحب من رماد، كان ينفض عن رأسه و وجهه التراب و الأوساخ و تمتم الرسول بحسرة: - و اللّه ما نالت قريش منى شيئاً أكرهه إلّا بعد موت أبىطالب. اهتزّت «فاطمة» لهول ما ترى وبدت كسعفة أغضبتها الريح... يا لصبر الأنبياء... شعرت بالانكسار. كيف سوّلت لذلك السفيه نفسه أن يمسّ بالسوء وجهاً يسطع بالنور... بكت بانكسار.. وسالت دموعها حزينة حزن سماء تمطر على هون. مسح الأب دموع ابنته ثم قال وعيناه تشعان أملاً: - لا تبكى يا فاطمة.. ان اللّه ناصر أباك على أعداء رسالته. انحسرت الغيوم عن السماء فبدت صافية مشرقة وعادت الابتسامة إلى الوجه الملائكى... ولكن عتباً كان يموج فى قلبها: - ترى أين كان فتى شيخ البطحاء... و هو لايكاد يفارق أباها... [صفحه ۱۸] يتبعه كظلّه.. يدفع عنه أذى السفهاء من قريش و نسيت فاطمة كلّ شىء بعد أن ناداها أبوها فخفّت اليه كحمامة بريّة تهفو إلى عشّها. ابتسمت فاطمة... فانعكست ابتسامتها فى وجه أبيها.. ابتسم محمّد.. أشرقت على قلبه شمس تغمره بالدفء و الأمل والحياة.. يالهذه الحورية الصغيرة ذكرى خديجة.. وباقة ورد من جنّات السماء. جلست فاطمة بين يدى والدها النبىّ زهرة تتفتح.. تتشرب كلمات اللّه. و تضىء الكلمات قلبها كنجوم فى سماء صافية. و تمر ثلاثة أعوام. و نمت فاطمة.. و تفتحت للحياة كما تتفتح الأزهار فى الربيع. [صفحه ۱۹]

القسمت ۰۳

شىءٌ يلوح فى سماء مكة.. لعلها خيوط مؤامرة تحوكها قريش كما تحوك العنكبوت بيتاً هو أهون البيوت. أبوجهل بدا مربّد الوجه غاظه محمد.. وقد أصبح حديث العرب فى الجزيرة.. السياط تنهال على فقراء المسلمين، و الإسلام ينتشر كنهر دافق تنثال مياهه على الشطآن الرملية. و أبوجهل لايروق له ذلك. غاظه رحيل محمد إلى الطائف يدعو قبائلها إلى دينه، و أفقده صوابه أن يبايعه رجال من يثرب... لقد مات أبو طالب و انتهت زعامته.. و اختفت خديجة و تبددت ثروتها.. و آن لمحمّد أن يموت ليمت هذا المتمرّد الذى يريد تحطيم الأصنام آلهة الآباء و الأجداد و حارسة قوافلنا و مصدر هيبتنا؛ ولكن كيف السبيل إلى قتل محمّد.. إنه لمخ يعد وحيداً.. يحوطه رجال أشدّ من الحديد بأساً.. انّه لا ينسى صفعة حمزة صياد الأُسود. ولكن [صفحه ۲۰] حمزة قد فرّ من مكة. ترك ابن أخيه وهاجر. و اذن فان كل شىء مهيأ للضربة القاضية. و يالها من فكرة رهيبة تفتقت عن شيطان مكّة. شمت «فاطمة» عبير الوحى ورأت أباها وجبينه يتصبب عرقاً.. اكتنفه جبريل يسرّه كلمات عظيمة يكشف له خيوط العنكبوت. غمر الليل مكة. ملأ أزقّتها بظلمة مخيفة؛ و بدت النجوم وهى تومض من بعيد لآلئ متناثرة فوق عباءة سوداء.. تقاطر رجال من مختلف القبائل يخفون سيوفاً و خناجر كأشباح، الليل كانوا يمرقون خلف أبواب مكة الموصدة و أبوجهل ينتظر اللحظة الحاسمة. لسوف يغمد شباب مكّة سيوفهم فى قلب محمد و ينتهى كل شىء.. و سيرى الحيرة بادية على وجوه بنى هاشم... لقد قُتل محمد وضاع دمه.. تفرّق بين القبائل. كان أبوجهل يعبّ خمرته منتشياً بفكرته.. ستبقى مكة تتحدث فى أنديتها عن فطنة أبىجهل. فرك شيطان مكة يديه وراح ينظر من خلال كوة تفضى إلى زقاق ملتوٍ منتظراً عودة فتيانه. تمتم النبىّ بخشوع و قد استدعى ابن عمه عليا: -«وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك... و يمكرون و يمكر اللّه و اللّه خيرُالماكرين». [صفحه ۲۱] أن يصمد الرجال فى المعارك يقاتلون حتى النفس الأخير فتلك شجاعة فريدة تدعو إلى الاعجاب.. ولكن أن يقدّم المرء نفسه للموت تتخطفه سيوف و خناجر فهذا لا يمكن أن تستوعبه أبجدية ما مهما بلغت من دقة التعبير وسمو المعنى. همس على و هو يصغى إلى حديث رجل رافقه أكثر من عشرين سنة. - أو تسلم يا رسولاللّه ان فديتك بنفسى؟ - نعم بذلك وعدنى ربى. كان علىّ حزيناً فمكة تتآمر على قتل انسان بعثته السماء لخلاص الأرض،

ولكن حزنه تبدل إلى فرحة كبرى فتقدم إلى فراش النبى بخطى هادئة و التحف ببردته ينتظر السيوف التى ستمزّقه و ستتدفق دماؤه نقية طاهرة ترسم فوق الأرض قصة رائعة من قصص الفداء. كانت الأشباح المخيفة تتلصص من خلال شق فى الباب فترى محمداً ما يزال يغطّ فى نومه هادئاً. - ما يزال نائما. - ولن يستيقظ بعد الليلة أبداً. - سأغمد خنجرى فى قلبه. - هذا الذى يسخر من آلهتنا. تطلّع أحدهم من شقّ الباب و عاد ليطمئن أصحابه: [صفحه ۲۲] - ننتظر حلبة شاة ثم ندهمه. مثل طيف ملائكى انسل النبى من بيته مهاجراً متجهاً صوب الجنوب لايلوى على شىء، و هو يدعو اللّه أن يحمى فتى الإسلام على: - ربِّ اجعل لى وزيراً من أهلى. لم يخالج النوم عينى فاطمة تلك الليلة. هاهو والدها العظيم يودّع مكة خائفاً يترقّب... لا تدرى عن مصيره شيئاً، و فى فراشه ينام فتى أبى‌طالب سوف تتخطفه سيوف القبائل... و الليلة حبلى بالمفاجآت. ووجدت فاطمة نفسها تتضرع إلى اللّه أن ينصر أباها كما نصر موسى من قبل و أن يحمى ابن شيخ البطحاء. اقتحمت الضباع منزل النبى، و كانت السيوف و الخناجر تتجه إلى رجل نائم ملتحفاً برداً حضرمياً أخضر. هبّ الفتى من فراشه كأسد غاضب وانتزع سيف أحد المهاجمين الذين تسمّروا فى أماكنهم لهول المفاجأة. صرخ أحدهم: - أين محمد؟ وجاءه الجواب ثابتاً ثبات جبل حراء: - لست عليه وكيلاً. تنفس الصبح و استيقظت مكة على أنباء مثيرة. لقد أفلت محمد وهاهو الان فى طريقه إلى يثرب وانطلق فرسان أشداء يجوبون [صفحه ۲۳] الصحراء بحثاً عن رجل شريد. لا أحد يعلم عن مكان النبى إلا فتى فى العشرين من عمره، عاد لتوه من غار فى جبل ثور حيث ودع النبى بعد أن أمن الطلب؛ عاد على ينفض عن نفسه غبار الطريق و يفكر فى وصايا النبى. لقد بقيت عليه مهمة واحدة أن يؤدى الأمانات إلى أهلها و يحمل الفواطم وضعفاء المسلمين إلى يثرب... ابتاع على «إبلاً»، وأسر إلى والدته فاطمة بنت أسد أن تتهيأ للهجرة و تخبر فاطمة بنت محمد و فاطمة بنت حمزة و فاطمة بنت الزبير. تحركت قافلة الفواطم يقودها على ماشياً و التحقت بالركب اُم أيمن و أبو واقد. و تسلل ضعفاء المسلمين ليلاً إلى «ذى طوى» حيث واعدهم على هناك. كان أبوواقد يسوق الركب سوقاً حثيثاً، و أدرك على ما يموج فى أعماق أبى واقد من الخوف و الهلع فقريش لن تغفر له ذلك أبداً. هتف على مهدئاً: - إرفق بالنسوة يا أبا واقد. وقرب (ضجنان) لاحت للقافلة ثمانية فرسان يثيرون الغبار... كانوا ملثمين و عيونهم تبرق بالشرّ. [صفحه ۲۴] صاح علىّ بأبى واقد وأيمن: - انتحيا بالإبل واعقلاها. الصحراء مدّ البصر تموج بالرمال و علىّ الذى أنهكه المشى هو رجل القافلة الأوّل فتى تعدّى العشرين بثلاث. كانت العيون تتجه اليه أمه تراقبه متوجسة. و بنت محمد تخاف عليه سيوف أعداء أبيها، و أبوواقد لا حول له و لا قوة. وقف على وعيناها تقدحان شرراً. هتف فارس لم يكتشف علياً بعد: - أظننت يا غدار انك ناجٍ بالنسوة.. ارجع لا أبا لك. - فإن لم أفعل؟. - لترجعن راغماً. ودنا أحدهم من النوق لإثارتها. فاعترضه علىّ وهوى بسيفه وسقط الفارس فوق الرمال. تسمر الفرسان. لقد أخذتهم المفاجأة. انهم لم يروا فى حياتهم ضربة كهذه. صاح أحدهم و قد رأى الفتى يستعد للهجوم: - احبس نفسك عنّا يا ابن أبى‌طالب. وهكذا دخل علىّ دنيا الفروسية، كما دخل دنيا الفداء قبل أيام. وسارت سفن الصحراء تشقّ طريقها على مهل صوب يثرب، تسير ليلاً و تكمن نهاراً. [صفحه ۲۵]

القسمت ۰۴

السماء مرصعة بالنجوم... تتلألأ من بعيد كلالئ منثورة. حطّ المهاجرون عصا الترحال فى «ضجنان» وانحنى على يعالج قدميه و قد تفطرتا من المشى مئات الأميال. بركت النوق فوق الرمال تلتقط أنفاسها و تشم رائحة وطن قريب. عينا فاطمة تسافران بين النجوم تستكشفان آفاق السماء... حيث انطلق أبوها فى رحلة الاسراء و المعراج على ظهر البراق. عينا فاطمة ما تزالان مسمرتين فى النجوم، و قد أزهر وجهها كوكب صغير هبط على الأرض، وبدا القمر فى آخر ساعات الليل أصفر الوجه كما لو أجهده السهر،همست فاطمة فى نفسها تناجى: - أنت وحدك الباقى... كلُّ شىءٍ آخذ طريقه نحو المغيب، النجوم، القمر.. الأرواح البيضاء تتجه اليك لا تبالى بأشواك الطريق فى الصحراء حتّى لو كانت حافية القدمين... [صفحه ۲۶] أنت وحدك الحق يا رب... أنت نور عينى و فرحة قلبى... دعنى ألج ملكوتك اسبحك واطوف مع النجوم حول عرشك.. أنت وحدك الحقيقة و ما سواك وهمٌ.. أنت وحدك نبع الحياة

وعداك سراب يحسبه الظمآن ماء. فى «قبا» هبط جبرئيل يحمل كلمات السماء إلى رجل فرّ من اُمّ القرى ينبئه عن مسار قافلة فيها ابنته و امرأة ربّته وفتى ربّاه فى حجره فلما اشتدّ ساعده وقف إلى جانبه يفديه بنفسه... فاح عبير الوحى... ملأ فضاء «قبا» حيث بنى الرسول أوّل مسجد فى الإسلام: - «والذين يذكرون اللّه قياماً وقعوداً و على جنوبهم و يتفكرون فى خلق السماوات و الأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار. فاستجاب لهم ربّهم انى لا اُضيع عمل عامل منكم من ذكرٍ أو اُنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا من ديارهم و أوذوا فى سبيلى و قاتلوا و قتلوا لاُكفرنّ عنهم سيئاتهم و لأدخلنهم جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند اللّه و اللّه عنده حسن الثواب». كان النبىّ يترقّب وصول القافلة المهاجرة فيها أخوه و ابنته و امرأة ربّته. كلمات جبريل ما تزال تطوف فى خياله و هو ينظر إلى الأفق البعيد ولكن لاشىء سوى الرمال السمراء... [صفحه ۲۷] ولو قدّر لأحد كان فى «قبا» لرأى رجلاً قد ذرف على الخمسين ليس بالطويل و لا القصير كان ربعة «و قد جعل الخير كله فى الربعة»؛ أزهر الوجه، ناصع البياض مشرباً بحمرة خفيفة لعلّها من أثر الشمس و رياح الصحراء، رجل الشعر يبلغ شحمة اُذنيه و يكاد يلامس منكبيه؛ واسع الجبين، مقوّس الحاجبين كهلالين، و كانت عيناه نجلاوين واسعتين؛ اقنى الأنف، كأنّ أسنانه لؤلؤ منضود فاذا مشى مشى الهوينى متقارب الخطى كزورق ينساب على هون. وقف النبىّ يتأمل الصحراء المترامية تمسح عيناه الأفق البعيد، ينتظر أحبّة فارقهم فى لحظة ليل وقد حاصرته ذئاب مكة. غمر الليل الصحراء و آب النبى إلى مضارب «بنى سهم»، وقد بدا على وجهه حزن كحزن آدم يوم بحث فى الأرض عن حوّاء. وصلت القافلة بسلام، وخفّ الأب للقاء ابنته ذكراه الغالية من خديجة... خديجة التى رحلت بعيداً و تركته وحيداً. عانقت البنت أباها. غرقت فى عبير رجل سماوى، فاضت عيناها دموعاً، دموع فرح و دموع رحمة. - يا لعذاب محمد.. يالعذاب الأنبياء. ربما دهشت بعض النسوة وهن يتطلعن إلى رجل ذرف على الخمسين يجتاز فى لحظة نصف قرن من الزمن ليتحول إلى طفل [صفحه ۲۸] يرتمى فى أحضان أمه. تمتم رسول السماء يضع حدّاً لأسئلة تناثرت فوق الرمال: - فاطمة اُمّ أبيها. فاطمة بربيعها الثالث عشر تتحول إلى اُمّ لأعظم الأنبياء. - و فاطمة بضعة منى. نظر محمّد إلى عينى ابنته كان يبحث فيهما عن فتى شرى نفسه للّه. - انه هناك يا أبه.. تشققت قدماه.. سال منهما الدمّ.. الشوك والرمضاء و مشاقّ الصحراء... و لا ناقة عنده و لا جمل. تألقت عينا النبى: - انّه أخى. مضى محمّد للقاء أخيه المهاجر.. وهبَّ الفتى للقاء رسول السماء.. نسى آلامهُ. رشّ الرسول كفيه برحيق النبوّة ثم مسح على قدمى الفتى المهاجر، كاُمّ رؤوم تمسح رأس وليدها ليغفو و ينام.. سافرت الآلام و وجد على نفسه فى مهد امّه فى أحضان رجل ربّاه صغيراً.... فغفا و نام، ونهض الرجل المكى تاركاً وليد الكعبة يلتقط أنفاسه بعد رحلة مريرة فى رمال الصحراء. [صفحه ۲۹]

القسمت ۰۵

دخلت القافلة يثرب وانطلقت أناشيد الفرح تملأ الفضاء... طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا ما دعا للّه داع أيُّها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع جئت نورت المدينة مرحباً يا خير داع وامتزجت كلمات الفرح مع زغاريد النسوة وارتدت يثرب حلّة جديدة. و مرت «القصواء» تشقّ طريقها بين الجماهير و تناثرت كلمات رجاء هنا و هناك: - انزل يا رسول‌اللّه على الرحب والسعة. - دعوا «الراحلة» فإنها مأمورة. وسارت «القصواء» حتى اذا وصلت بيت «أبى‌أيوب» شمّت [صفحه ۳۰] رائحة وطن فأناخت رحلها وبركت، وفى تلك البقعة من أرض اللّه ارتفعت قواعد مسجد قدر له أن يصنع التاريخ و الحضارة. و تساءل بعض المسلمين ترى كيف ندعوا إلى الصلاة. قال أحدهم: - ننفخ بالبوق كما يفعل بنو قريظة... ألسنا نتجه فى الصلاة إلى قبلتهم؟. - الناقوس أفضل... ناقوس النصارى له صوت ساحر.. و كان للسماء رأى آخر... هبط جبريل يحمل النداء، ان اللّه يأمركم أن ترفعوا الأذان.. و ترقرقت فى جنبات المدينة كلمات السماء و كان بلال يدعو المسلمين: اللّه أكبر حى على الفلاح حى على الصلاة. و تمرّ الأيام، و يشتد عود الإسلام؛ و نمت فاطمة... تفتحت للحياة الجديدة.. حياة تنبض بدفء الايمان و الأمل.. و أبوها محمد يرسم الطريق الذى يمر عبر يثرب قلب العالم. توالت الأحداث و تستيقظ جزيرة العرب على انباء ستغير مسار التاريخ. اتجه المسلمون إلى الكعبة فى الصلاة بعد ما

كـانوا يتّجهـون إلى بيت المقـدس... واغتـاظ اليهود... ثم ولـد رمضـان... رمضـان الكريم، و أصـبح للمجتمع الوليـد أعيـاد فرح.. عيد «الفطر» و عيد [صـفحه ۳۱] «الأضـحى» و تـدفّق نهر الزكاة يطهر الأغنياء و يحيي الفقراء؛ ثم هبّت المدينـة لتشارك كلّها فرحـة النبى والـذين آمنوا معه. كبرت فاطمـة سيدة النساء... أُم أبيها... نفسـى التى بين جنبى... و فاطمـة بضـعة منى... مضـى «أبوبكر» و هو يحث الخطى إلى منزل النبى... وفى قلبه أُمنيـة طالما حـدّث بها نفسه. لاشك أن رسول‌اللَّه سـيقبل طلبه فهو صاحبه الـذى هاجر معه فارّاً من مكـة... و تحمل معه مشاقّ الهجرة و مخاطر الطريق... ثم انه قد زف اليه ابنته عائشة وهى ما تزال صـغيرة بعد... و أىّ شـرف عظيم من مصاهرة رسول‌اللَّه... طرق «الصـحابى» الباب برفق... جلس قبالة النبى... - جئتك خاطباً يا نبى‌اللَّه. تمتم النبى: - أمرها إلى ربها. نهض «أبوبكر» و اسـتأذن بالإنصـراف... و فى الطريق كـان أبو عـائشه يفكر- ألاـ يكون قـد أغضب النبى فينزل فيه وحى من السـماء. وسـمع «أبوحفصـة» بقصـة صـاحبه فـاستيقظت فى نفسه رغبـة سـرعان ما اسـتجابت لها جوارحه... مضـى «عمر» مسـرعاً نحو منزل «الرسول» و استأذن فى الدخول [صفحه ۳۲] عليه... انه لا يحب الانتظار أكثر من ذلك فقال على الفور: - جئتك خاطباً ابنتك فاطمـة. قال النبى: - انتظر بها أمر اللَّه... و هيمن صـمتٌ ثقيل.. و نهض «أبوحفصة» بعد أن اسـتأذن النبى و غادر المنزل مثقل الخطى و وجد نفسه يمضى إلى منزل صاحبه «أبى‌عائشة» ربما ليتحدث معه بشأن «فاطمة»، ترى من سيحظى بهذا الشرف الرفيع... مَن سيقترن بسيّدة نساء العالمين. [صفحه ۳۳]

القسمت ۰۶

نسـيم عليل كان يداعب سعفات النخيل، يحركها برفق، و ظلال وارفة تنتشر تطرّز أرض رجل من «الأنصار».. كان علىّ ما يزال منهمكاً بارواء نخلات باسـقات يحمل المياه على بعير له بأجر... و قـد تصـبب عرقاً... جلس الفتى الـذى بلغ من العمر خمسة و عشـرين سـنة... جلس يلتقط أنفاسه... أسـند جـذعه إلى جـذع نخلة ميساء و طافت أمامه آيات من القرآن... - «ربِّ إنى لما أنزلت إلىّ من خيرٍ فقير». من بعيـد لاـح له رجلان قادمان كانا يحثّان الخطى... سـرعان ما عرفهما. عرف أوّلاً عمر يعرف طريقته فى المشـى، ثم تعرّف «أبابكر» لأنه طالما شاهـدهما معاً... فهناك ما يشـبه الصداقـة بينهما... تمتم أبوعائشة: [صـفحه ۳۴] - يـا أباالحسن.. لم تبق خصـلة من خصال الخير إلّا ولك فيها سابقـة و فضل.. و أنت من رسول‌اللَّه بالمكان الـذى قـد عرفت من القرابـة و الصـحبة و السابقـة... فما يمنعك أن تـذكرها لرسول‌اللَّه و تخطبها منه. قال عمر دون مقـدمات: - و قـد خطبها الأشـراف من قريش فردّهم... و أظنه قد حبسـها من أجلك. أمسك «أبوبكر» بخيط الحديث: - ما الذى يمنعك يا على أن تذكرها!! تمتم علىّ وقد لاحت فى عينيه غيوم ممطرة: - واللَّه إن فاطمة لموضع رغبـة. وأردف و هو يقلّب يديه: - ولكن يمنعنى قلّة ذات اليد... أنا لا أملك من حطام الدنيا سوى سـيف و درع و هذا البعير. قال أبوبكر متأثّراً: - إن الدنيا لدى رسول‌اللَّه كهباء منثور. و قال عمر و هو يحثّه: - اخطبها يا على تزدد فضلاً إلى فضلك. سكت علىّ و طافت فى عينيه أحلام جميلة. [صفحه ۳۵] نهض على الى ساقية قريبة وراح يتوضأ، أشاعت برودة الماء السـلام فى روحه؛ و أدرك الشـيخان ان «علىّاً» قـد حزم أمره، فغـادرا المكان وقفلا عائـدَين. كان «النبىّ» جالساَ فى حجرة أُم‌سـلمة، و كان عبير الوحى يطوف فى سمـاء المكان. ارتفعت طرقات على الباب... وهتفت أُم‌سـلمة: - مَن الطارق؟ قال النبى و قـد عرفه: - افتحى له.. هـذا رجل يحبّه اللَّه و رسوله. فتحت أُمّ‌سـلمة البـاب... و تريث «الطارق» ريثما تعود «أُمّ‌المؤمنين» إلى خـدرها: - السـلام على رسول‌اللَّه. - وعليك السـلام يا أبـاالحسن. جلس ربيب النبى مطرقـاً.. تلالاـت حبـات عرق فوق جبينه الواسع... كلمـات تطوف فى أعماقه.. و قـد انتصب الحياء سـدّاً كصخرة صماء تقطع تدفق الساقية. أدرك النبىّ ما يموج فى أعماق على، فقال والبسمة تطفح فوق وجهه: [صفحه ۳۶] - يا أباالحسن كانّـك أتيت لحاجـة فقـل حاجتك. انفتحت أمام الفتى كوّة من أمل و وجـد نفسه يقول: - يا رسول‌اللَّه... إن اللَّه هـدانى بك و على يديك و قد أحببت أن يكون لى بيت و زوجة أسكن اليها و قد أتيتك خاطباً ابنتك فاطمة. كانت أُمّ‌سلمة تنظر إلى وجه النبىّ، فرأت بسـمة تطوف فى محيـاه. قـال النبى: - يـا علىّ انه قـد ذكرهـا قبلك رجال فـذكرت ذلك لها، فرأيت الكراهـة فى وجهها، ولكن على

رسلك حتى أدخل عليها. نهض النبيّ، و نهض عليّ إجلالاً له. - يا فاطمة. - لبيك يا رسول‌اللّه. - ان على بن أبى‌طالب من قد عرفت قرابته و فضله و إسلامه.. و إنى قد سألت ربى أن يزوجك خير خلقه و أحبهم اليه؛ و قد ذكر من أمرك شيئاً فما ترين؟ أطرقت فاطمة و كانت علامة رضا تطوف فوق وجهها تغالب مسحة حياء صبغت و جنتيها بحمرة خفيفة كشمس صباح باسم. هتف النبيّ مستبشراً: - اللّه أكبر سكوتها رضاها. [صفحه ۳۷] تدفّق ينبوع فرح فى بيت اُمّ‌سلمة. طاف الخبر السعيد منازل المدينة كفراشة تدور، تحطّ هنا و ترفرف هناك؛ و حلّقت فى الأفق أحلام العذارى؛ و شمّ بعض أهل «الصفة» رائحة وليمة عرس. قال النبيّ و هو يتطلّع إلى صهره: - هل معك شىء اُزوجك به؟ عرض الفتى بضاعته المزجاة: - سيفى و درعى و ناضحى. - أمّا سيفك فالأسلام يحتاج اليه و أمّا ناضحك فتنضح به على نخلك و تحمل عليه رحلك، ولكنى رضيتُ بدرعك. و انطلق على عارضاً درعه على من يشتريه و سرعان ما وجد له مبتاعاً... اشتراها منه «عثمان» و أقبل الفتى يحث خطاه إلى منزل النبى، فصب الدراهم بين يديه و كانت أربعمئة درهم. انطلق عليّ يهيئ منزله الجديد و صورة فاطمة بربيعها الخامس عشر ما تزال تطوف فى عينيه، و شعر بأن نبعاً من مياه باردة يتدفّق فى قلبه: نشر أرض الحجرة برمل ليّن، وراح يمسح عليه بكفّه فبدا كبلاطة ناعمة، و ثبّت خشبة بين الجدارين فى أقصى الحجرة لتكون مشجباً للثياب.. و بسط فوق زاوية من الرمل جلد كبش، زيّنها [صفحه ۳۸] بوسادة من الليف... و هكذا تم بيت فاطمة بنت محمد. أجال على بصره فى الحجرة... لا شىء يشد قلب المرأة... لا حرير و لا فراش وثير.. ولكنه يعرفها جيداً، يعرف بنت النبى. انها ليست سوى نفسه الكريمة التى تأبى سوى حياة البساطة و الحياة الخالية من بهارج الدنيا الزائلة. [صفحه ۳۹]

القسمت ۰۷

قال النبى و هو يناول بلالاً حفنة من الدراهم: - ابتع لفاطمة طيباً. والتفت إلى «أبى‌بكر» و ناوله حفنة اُخرى: - ابتع لفاطمة ما يصلحها من ثياب وأثاث، وخذ معك عمار بن ياسر... وانطلق جمع من صحابة النبى إلى السوق يشترون جهاز فاطمة. كان السوق يزخر بمختلف البضائع... بضائع حملتها النوق من مكان بعيد.. كان أبوبكر يجيل بصره فى زوايا السوق و فى قبضته دراهم معدودة... ماذا يمكنه أن يشترى بها... و بعد جولة مضنية دفعته قلّة ذات اليد إلى أن يتخير بضائع رخيصة الثمن فكانت: قميصاً بسبعة دراهم، و خمار بأربعة دراهم، قطيفة سوداء خيبرية، سرير مزّمل [صفحه ۴۰] بشريط، فراشان مصريان؛ حشو أحدهما ليف وحشو الآخر من صوف الغنم، أربعة وسائد من الجلد مما يدبغ فى الطائف و قد حشيت بنبات طيب الرائحة... ستائر رقيقة من الصوف، حصير مصنوع من سعف النخيل، رحى، اناء نحاسى لغسل الثياب، سقاء من الجلد، جرة خضراء و بعض الآنية الخزفية. و حمل الصحابة جهاز فاطمة متوجهين إلى منزل النبى.. راح النبى يقلب بيده آنية الخزف وعيناه تتفحصان جهاز سيدة نساء الأرض فتمتم بصوت أقرب إلى الحزن: - بارك اللّه لأهل بيت جل آنيتهم من الخزف. ربما تذكر خديجة تلك المرأة الثرية التى كانت القوافل التجاريه تحمل ثروتها من بلد إلى بلد وهاهى ابنتها تزف بجهاز من الجلد و الخزف و النحاس.سرعان ما طفت الابتسامة فوق محياة و هو يرى ابنته قادمة، فنهض من مكانه و قبل يدها وراح ينظر إلى وجهها المضىء يستشف من وراءه صورة زوجته الوفية و ملامح أمه الرؤوم. ارتفع صوت بلال جهورياً يدعو المؤمنين للصلاة؛ الكلمات تنساب هادئة مؤثرة مفعمة بالحب و الأمل و الحياة؛ و يشعر النبى بأن نبعاً فياضاً يتدفق فى صدره و يشيع السلام فى قلبه فنهض ملبياً داعى اللّه. [صفحه ۴۱] المسجد مكتظ بالمسلمين، ينتظرون قدوم «الرسول» ليس للصلاة فقط بل لشىءٍ آخر. ان النبأ قد أثار استغراب الكثير؛ يريدون استكشاف هذا الزواج الفريد. ان فتاة مثل فاطمة كان بإمكانها أن تتزوج ثرياً يفرش دربها بالحرير... صحيح ان ابن أبى‌طالب مثال للفتوة و هو ابن عمّ النبى ولكنه لايملك شيئاً. لقد هاجر حافياً و ما يزال يعيش حياة مريرة لايملك شيئاً... ولكن ما بال فاطمة ترضى لنفسها مثل هكذا حياة.. كان الهمس يدور على الشفاه. تحلّق المؤمنون حول «النبى» كعادتهم، كفراشات تنظر إلى شمعة تتوهج. أدرك النبى ما يجول فى الخواطر فقال بخشوع: - أتانى حبيبى جبريل فقال: يا محمد زوجها على بن أبى‌طالب فإن اللّه قد رضيها له و رضيه لها. وانفض المسلمون و قد ترسخت فى ضمائرهم صورة جديدة عن

الحياة العائلية عندما تنهض على الايمان وحده. لقد اختارت السماء لعلى فاطمة و اختارت لفاطمة علياً، و استجابت فاطمة لإرادة السماء طائعة مبتهجة ان شيئا فى أعماقها يشدها إلى على كما شدّ علياً لفاطمة. و باركت السماء رغبة على واستجابة فاطمة، و رفرفت الملائكة بأجنحتها مثى و ثلاث و رباع. [صفحه ۴۲] وجد على فى فاطمة ما كان يبحث عنه فى نفسه، ووجدت فاطمة فى على ما كانت تنشده فى أعماق روحها، و كان اللقاء على يد رسول السماء إلى الأرض.. إلى المرأة والى الرجل، ليكون اتحادهما ولادة للإنسان. وهكذا قدر لأنيس الطفولة أن يكون رفيق درب. كانت فاطمة سعيدة بعلى، ترى فى عينيه طيف أبيها.. أبيها الذى تحبه لأنه قادم من عند اللّه. أحبت فاطمة علياً.. أحبت فكره و خياله، رأت فيه ظلال محمد... حيث نشأت تحت تلك الظلال... أرادت أن تنتقل من بيت والدها إلى كنف رجل يشبه والدها فى كلّ شىء. جلس على فى بيته. استند إلى الجدار الطينى، و قد غاصت أصابع قدميه فى الرمل الليّن الذى يغطى أرضية الحجرة... كلّ شىء فى البيت ينتظر فاطمة... مشجب الثياب... المخضب... الرحى.. حتى ذرّات الرمل. فاحت رائحة «الاذخر»؛ ملأت فضاء الحجرة عطراً... و على ما يزال يترقب قدوم فاطمة و قد مضت ثلاثه أسابيع حسبها علىّ قروناً طويلة. لابد من خطوة للقاء، وقفزت فى ذهن «الفتى» صورة «حمزة»، فنهض من فوره وحث الخطى نحو منزل عمّه. [صفحه ۴۳]

القسمت ۰۸

مرّت أيام و أيام، و على لايفتأ يذكر فاطمة.. يعيش خيالها الشفاف؛ روحها الطاهرة؛ عينيها المضيئتين؛ مشيتها وهى تخطر على الأرض هونا... قال و هو يحدق فى عينيه: - فى عينيك سؤال. - يا عمّ ذكرت أهلى. - ما تنتظر إذن.. هيا بنا إلى منزل النبى. فى الطريق لاحت لهما «أُم أيمن» و قد أدركت على الفور ما يدور فى خلد على فكفتهما مؤونه ذلك. انطلقت «اُم أيمن» و كان النبى فى بيت اُم سلمة. قالت اُم أيمن و قد عرفت كيف تستأذن قلب الرسول: - يا رسول اللّه لو أنّ خديجة باقية لقرّت عينها بزفاف فاطمة.. [صفحه ۴۴] و إن علياً يريد أهله.. فقر عين فاطمة ببعلها و أجمع شملهما وقِرّ عيوننا بذلك. قال النبى: - فما بال على لا يطلبها منى؟ - يمنعه الحياء يا رسول اللّه... كانت علينا النبىّ تبحثان عن خديجة... تجمعت فى عينيه الدموع كغيوم ممطرة: - خديجة... وأين مثل خديجة، صدّقتنى حين كذبنى الناس و آزرتنى على دين اللّه و أعانتنى عليه.. وقفت اُم أيمن تنتظر رسول اللّه: - انطلقى إلى على فأتينى به. خفت اُم أيمن إلى حيث ينتظر الفتى: - ما وراءك يا اُم أيمن؟ - الخير كله؛ رسول اللّه يدعوك. كان على مطرقاً برأسه يحدّق فى الأرض، قال النبى مشجّعاً: - أتحب أن تدخل عليك زوجك؟ - نعم فداك أبى و اُمّى. - نعم وكرامة يا أباالحسن أُدخلها عليك فى ليلتنا هذه أو فى ليلة [صفحه ۴۵] غد إن شاءاللّه. نهض الفتى و هو يطير فرحاً. لقد حلّت لحظة اللقاء؛ لقاء قلبين طاهرين.. روحين صافيتين... تمايلت سعفات النخيل طرباً.. تألّقت فى السماء النجوم؛ وظهر القمر يزدهى بهالته.. والسماء تتطلع إلى عرس فى الأرض. تألقت فاطمة فبدت بين النسوة كوكباً درّياً؛ حتى اذا استوت فوق الناقة، ارتفع صوت الدفوف، وبدأ موكب الزفاف يسير الهوينى. فاطمة تحفها بنات عبدالمطلب و نساء المهاجرين و الأنصار، أخذ عمار بزمام الناقة و كان الرسول و بصحبته حمزة و الرجال يمشون خلفها. وملأت الزغاريد الفضاء وانطلق صوت اُم سلمة يشدو فرحاً: سرن بعون اللّه جاراتى واشكرنه فى كل حالات واذكرن ما أنعم رب العلى من كشف مكروه وآفات فقد هدانا بعد كفر و قد انعشنا ربُّ السماوات [صفحه ۴۶] وارتفع صوت حفصة: فاطمة خير نساء البشر ومن لها وجه كوجه القمر فضلك اللّه على كلِّ الورى بفضل من خصّ بآى الزمر زوّجك اللّه فتىً فاضلاً أعنى علياً خير من فى الحضر فسرن جاراتى بها أنها كريمة بنت عظيم الخطر فى المسجد كان اللقاء، أخذ النبى يدى فاطمة، و وضعها فى يدى على، و تمتم الرسول بخشوع: - اللهم انهما أحب خلقك إلى، فاحبهما، و انى أعيذهما بك و ذريتهما من الشيطان الرجيم. شهد البيت الصغير ولاده حبّ عميق عمق البحر، طاهراً كقطرات الندى، متدفقاً كالينبوع. لم تعثر فاطمة فى بيتها على فراش وثير لكنها وجدت قلباً دافئاً ينبض بالحب، و لم تجد فاطمة فى منزلها الجديد جواهر أو لؤلؤاً منثوراً لكنها وجدت انساناً يموج بقيم تتألق سموّا و تشع رحمة، وجدت فاطمة ما تنشده المرأة فى أعماقها... [صفحه ۴۷] وجدت كل ذلك قرب علىّ. و وجد على فى فاطمة قبساً من اُمه، فالزهراء تكاد

تـذوب رقـة، وجـد فيهـا رفيق دربه، ففاطمـة شوق و حنين، ووجـد فيهـا الخصب والحياة ففاطمـة كوثر محمـد. طلب على يـد فاطمـة؛ واطرقت فاطمة، وكان صمتها، و حمرة الحياء تقولان نعم لعلى، و باركت الملائكة لقاء الشطرين ليؤلّفا كياناً جديداً فيه صفات حواء و خصال آدم. وذات صـباح جاء النبى زائراً و سأل فتاه: - كيف وجـدت أهلك؟ أجاب على وعيناه تنطقان ثناءً. - نِعم العون على طاعة اللَّه. و التفت النـبى إلى فتـاته: - و كيف وجـدتِ بعلـك؟ فقـالت بكلمـات تقطر حيـاءً و حبّـاً: - خير بعـل. رمق النـبى السـماء. عَبَرت الأفلاكَ كلماتُه الدافئـة: - اللهم ألّف بين قلبيهما و ارزقهما ذرية طاهرة. و عندما همَّ بالنهوض قال الأب لفتاته: [صـفحه ۴۸] - يا بنية نعم الزوج زوجك... لا تعصـى له أمراً، ثم شد على يد فتاه و قال بهدوء: - الطف بزوجتك وارفق بها فان فاطمة بضعه منى يؤلمنى ما يؤلمها و يسرّنى ما يسرّها. شـىء ما ولد فى قلب على تجذّر فى أعماقه، شـىء يشبه العهد... الميثاق ألّا يغضب فاطمة أو يكرهها على أمر ما إلى الأبد. و فى قلب فاطمة ولد الحب، تفجر نبعه و عند ما يحب المرء ينسى كلّ شىء سوى الطاعة للحبيب. وهكذا عاش علىّ و فاطمة. و تمرّ الأيام. [صفحه ۴۹]

القسمت ۰۹

كانت تشـبه أباها فى كل شـىء، فى حديثها، صمتها، مشيتها، وفى ذلك النور الذى يشع من عينيها، تعمل بصمت أو ترتل سورة مريم تتشـربها.. تتنفس جوهـا و تعيش فى ظلالهـا. رتبت ثيابها و كانت قليلـة مختصـرة. وضـعتها فوق خشـبة كان زوجها قـد ثبتها فى زواية الحجرة، نشـرت خمارها و قطيفـة سوداء و قميصاً رخيصاً، رتّبت الفراش ثم عمدت إلى كنس البيت. و تصاعد غبار خفيف كان يتألق فى ضوء الشمس. مسحت كنيزان الخزف و أعادت ترتيبها فبدت جميلة. حاولت أن تجر الرحى إلى مكان مناسب. وجدتها متشبثة فى الأرض فتركتها مكانها ريثما يعود زوجها. و من كيس فى زاوية الحجرة استخرجت حفنات من الشعير ثم جلست إلى الرحى. [صفحه ۵۰] دارت الرحى، تساقط الـدقيق تباعاً فجمعته فى اناء صـغير، أضافت قـدحين من الماء وراحت تعجن الخليط حتى اذا تجانس غطت الاناء و تركته ريثما يصـبح خميراً. جلست فاطمة و أشعلت النار فى الموقد، تصاعد دخان أزرق و توهج جمر فسفورى الحمرة، كانت عيـدان الحطب تتكسـر، و كانت فاطمـة تصـغى مسـتغرقة، سـرت فى أطرافها قشـعريرة و تجمعت فى عينها الـدموع فرمقت السـماء من خلالها و قلبها ينبض أملاً بما وعد اللَّه المؤمنين. ملأت رائحة الخبز الحارّ فضاء البيت. عاد علىّ و قد بدا مهموماً بعض الشـىء و عندما وقعت عيناه على فاطمـة شاعت الابتسامـة فى وجهه. لشـدّ ما يحبها بقوامها النحيل بتلك الروح التى تكاد تغادر أهاب البدن إلى حيث ترفرف الملائكـة. نظر علىّ و هو يتناول قرص الشـعير إلى يـديها. كانت هناك خطوط حمراء فى كفيها أدرك على الفور انّها من أثر الرحى؛ تمنى أن يكون بوسـعه شـراء خادم تعينها على تدبير المنزل، فكر أن يضاعف جهده فى حفر الآبار، سـيحيل المدينة إلى ينابيع لكى يتسـنى له جمع مبلغ يكفى لشـراء جاريـة تعين سـيدة النساء: و ربما حصل على غنيمـة تغنيه عن كلّ ذلك، كان على يفكّر و هو يعالـج سـيفه ذىالفقار. لم تسأل فاطمـة زوجها عن المناسـبة فى كل هذا الاهتمام [صـفحه ۵۱] بالسـيف فقد سمعت هى الأخرى عن اسـتعدادات المسـلمين للتصـدّى لقوافل قريش التجاريـة و سـمعت من بعض نسوة المهاجرين اخباراً عن قافلـة كبيرة يقودها أبوسـفيان تحمل أموالاً طائلة... تذكّرت فاطمة كيف صادر المشركون أموال المهاجرين. تذكرت أيام الحصار فى شِعب أبىطالب و ألوان القهر والظلم الـذى صـبه أبوسـفيان و أبوجهل و أبولهب على الرسول والـذين آمنوا. أفاقت فاطمـة على صوت زوجها و هو يرتّل بخشوع: - يسألونك عن الشـهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصـدّ عن سبيل اللَّه و كفر به، والمسـجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند اللَّه، والفتنـة أكبر من القتل. لكأنّ على يـدرك ما يدور فى خلد فاطمة، وهاهى السـماء تشدّ أزر المظلومين المشـرّدين... تمنحهم سـيوفاً و بيارق ينتصـفون بها ممن قهروهم و شـرّدوا بهم من ديارهم. ودّع النبى ابنته فاطمة. وأدرك المسلمون جميعاً أنّ الرسول قد أعدّ العدّة لاعـتراض قافلـة قريش، وانّه لم يبق له فى المدينـة شـىء. هزّ على رايـة العقاب بيـده وانطلق بصـحبة النبىّ باتجاه الشـمال حيث «وادى الروحـاء» وسُـمع النبى يقول: - هـذا أفضل أوديـة العرب. [صـفحه ۵۲] عسـكرت قوات المسـلمين و كانت تتألف من ثلاثمئـة مقاتل

يتناوبون على ركوب سبعين من الأبل اضافة إلى فرسين فقط، و بعد استراحة وجيزة، قضاها المسلمون فى الصلاة و التهيؤ لقطع المسافة لآبار «بدر» حيث طريق القوافل التجارية. قسم النبى الأبل على المقاتلين فكان نصيبه مع على و «أبى‌مرشد» بعيراً واحداً يتناوبون ركوبه. قال على وأيده أبومرشد: - نحن نمشى عنك يا رسول‌اللّه. أجاب النبى و هو يطوى الصحراء ماشياً على قدميه: - ما أنتما بأقوى منى، و لا أنا بأغنى عن الأجر منكما. وفى «الصفراء» بعث النبى دورية استطلاع إلى «بدر». وفى «وادى ذفران» وصلت انباء مثيرة. [صفحه ۵۳]

القسمت ۱۰

مكة يغمرها الظلام؛ والنجوم ترسل ضوءً واهناً... تتبض من بعيد كقلوب مجهدة؛ نامت العيون ما خلا عيوناً حجرية تحيط بالكعبة ما تزال مفتوحة تحدّق ببلاهة و غباء. وفى عالم هلامى كان رجل يركب بعيراً يخطر به حتّى اذا وقف «بالأبطح» صرخ عالياً: - يا آل غدر انفروا إلى مصارعكم! خف البعير براكبه فوق ظهر الكعبة وصرخ: - يا آل غدر انفروا إلى مصارعكم. طار البعير نحو جبال مكة. هبط على قمة «أبى‌قبيس» و صرخ الراكب مرّة اُخرى: - يا آل غدر انفروا إلى مصارعكم. انتزع الراكب صخرة من الجبل ثم قذف بها بيوت مكة.. انفجرت الصخرة فى أسفل الوادى وأضحت حجارة متناثرة تساقطت كشهب [صفحه ۵۴] مجنونة فوق منازل مكة وأفنيتها. استيقظت «عاتكة» امرأة من بنى عبدالمطلب. استيقظت مذعورة تجفف وجهها من حبات العرق، و ما تزال الرؤيا ماثلة أمامها. كانت السماء تنث مطراً خفيفاً كدموع هادئة، وظلت «عاتكة» مستيقظه تحدق فى الظلام حتى اذا طلع الفجر أخذت طريقها إلى منزل «العباس». كغراب أسود يدور البيوت، شاع خبر الرؤيا فى منازل مكة؛ وجثم الوجوم على القلوب. ترى ماذا تخبئ الأيام. وهرع بعضهم إلى أصنام نحتوها يتمسحون بها يلتمسونها الطمأنينة فلا تألوهم إلّا خبالا؛ و قدم بعضهم نذوراً للآلهة، تصاعد دخان لكن دون جدوى؛ القلق ما يزال يلوى القلوب كريح عاصفة. غضب «أبوجهل» برقت عيناه حقداً و هو يصغى إلى تفاصيل الرؤيا و هتف بالعباس متهدداً: - أما كفاكم يا بنى عبدالمطلب أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم!... سنتربص بكم ثلاثه أيام.. فان مضت و لم يكن شىء... فأنتم أكذب بيت فى العرب. ردّ العباس بغضب: - يا مصفراً استه أنت أولى بالكذب منا. مضت ثلاثه أيام؛ كصفحات من كتاب كبير تنطوى وبدت صفحة [صفحه ۵۵] كبيرة من عالم مفتوح و ظهرت مكة، و يثرب و صحراء واسعة مليئة بالرمال و الحوادث، وظهرت خيول وابل ورجال تجوب الأودية. استيقظت مكة مذعورة... صرخات «ضمضم» تبعث الرعب فى القلوب الخطر يهدد الآلهة؛ و آلهة قريش عبادة و تجارة: - يا معشر قريش اللطيمة»... أموالكم مع أبى‌سفيان قد تعرض لها محمد و أصحابه. كان منظره عى بعير مجدوع الأنف، مشقوق القميص إنذاراً بالخطر الداهم. و ثارت الحمية حمية الجاهلية؛ صرخ أبوجهل: - واللات والعزى ما نزل بكم أمرٌ أعظم من أن يطمع بكم محمد و أهل يثرب فانهضوا و لايتخلّف منكم أحد. و تجهزت قريش، اظهرت كل حقدها الدفين تطلب رأس رجل هاجر إلى ربّه. تجمّع الحاقدون فكانوا الفاً إلّا خمسين، و من الابل ثلاثمئة و خمسون ومن الخيل مئتان. وسارت قريش بخيلها و خيلائها بدفوفها وقيانها بخمرتها وآلهتها، سارت تشقّ بطون الأودية. وفى الصحراء كان أبوسفيان يقود القافلة، يسوقها سوقاً حثيثاً، عيناه تدوران فى محجريهما؛ تسعان الآفاق؛ تترصدان الآثار. و بين [صفحه ۵۶] الفينة و الاُخرى كان يتوقف ليدقق فى أثر بعير أو فرس، أو يفتت بعرة يبحث فيها عن أثر لغريم يترصده. ينتظر لحظه الثأر المقدس ولكن لا شىء، الصحراء غامضة غموض البحر و الرمال هى هى بتموجاتها والسماء تزدحم بغيوم رمادية تمر فوق الرمال كسفن تائهة. كانت القافلة تتقدم من آبار بدر، وقد عصف القلق بأبى‌سفيان وأطل الرعب من عينيه يخشى أن يسقط فى قبضة محمّد عدوّه اللدود. سأل أبوسفيان اعرابياً قرب الماء عن خبر محمّد، أجاب الاعرابى: - لم أرَ أثراً لما تقول، ولكنى رأيت رجلين يستقيان فى الصباح. - وأين مناخهما. - هناك فوق ذلك التل. أسرع أبوسفيان إلى حيث أشار الاعرابى. - نعم هذا مناخ إبل... وحانت منه التفاته فرأى بعرة فالتقطها كما يلتقط المرء جوهرة نادرة، فركها بكفيه فظهرت نواة تمر، صرخ أبوسفيان مرعوباً: - هذه واللات علائف يثرب. أسرع أبوسفيان إلى مناخ قافلته فحث رجاله على

اثارتها والاتجاه بها نحو ساحل البحر الأحمر، غادرت القافلة تاركة «بدر» إلى شمالها ممعنة بالفرار، وهكذا أفلت أبوسفيان ولو إلى حين. [صفحه ۵۷]

القسمت ۱۱

هطلت الأمطار... هطلت بغزارة فسالت أودية بقدر، وقف النبى... راح ينظر إلى السماء و السحب تسح ما تسح من دموعها الثقال... رفع يديه إلى عوالم لانهائية و تضرع إلى اللّه: - اللّهم نصرك الذى وعدت... اللّهم لا تفلتنى أباجهل فرعون هذه الأُمة. كان الوجوم يسيطر على ثلاثمئة رجل. لقد خرجوا لمواجهة قافلة تجارية، وهاهى الأنباء تحمل لهم سيوفاً و خناجر... و هاهى قريش تزحف نحوهم بجيش عرمرم.. ألف رجل إلّا خمسين. هتف النبى بأصحابه: - أشيروا على: القلق يعصف بالرجال و قد ضرب الخوف أطنابه فى بعض القلوب... نهض «عمر» قائلاً: [صفحه ۵۸] - يا رسول‌اللّه.. انها قريش!! ما ذلت منذ عزت و ما آمنت منذ كفرت.. راح بعضهم ينظر إلى بعض وأفئدتهم هواء. نهض المقداد وقد امتثلت أمامه قصص بنى‌اسرائيل: - يا رسول‌اللّه! امض لما أمرك، فنحن معك، واللّه لا نقول كما قال بنو اسرائيل لموسى... اذهب انت و ربّك فقاتلا انّا هاهنا قاعدون، إذهب أنت و ربك فقاتلا انّا معكما مقاتلون». أطل عزم جديد من عيون الرجال وخيم صمت ثقيل، كان النبى ينتظر موقف الأنصار فله معهم يوم العقبة عهد و ميثاق. نهض «سعد بن معاذ» و قال بأدب: - لكأنك تريدنا يا رسول‌اللّه: - أجل. انسابت الكلمات قوية أخاذة مؤثرة: - يا رسول‌اللّه: لقد آمنا بك و صدقناك و شهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا و مواثيقنا على السمع و الطاعة.. فامض يا رسول‌اللّه لما أردت.. فوالذى بعثك بالحقّ، إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد. إن للكلمة فى القلوب أثر البذرة فى الأرض الخصبة سرعان ما [صفحه ۵۹] تنمو و تهب ظلالها و ثمارها... اشاعت كلمات سعد روح الأمل شحذت الهمم بعد خوف وقلق.. طافت فى الوجه السماوى فرحة ورضا وهتف النبى برجاله: - سيروا على بركة اللّه وابشروا، فإن اللّه وعدنى احدى الطائفتين، واللّه لكأنى انظر إلى مصارع القوم. عبّأ النبى قوّاته و غادر «ذفران» وسلك طريق «الاصافر» ثم هبط منها، وبدا «كثيب السحنان» كجبل شامخ. وقاد النبى رجاله الى يمين «الكثيب» حتى اذا اصبح قريباً من مياه بدر أصدر أمراً بالتوقّف ريثما ينجلى الموقف. بعث النبى «علياً» على رأس دورية استطلاع للحصول على معلومات عن قوّات قريش، أوغل على فى المسير و وصل آبار بدر؛ فالماء حيوى لرجال فى الصحراء، وألقت الدورية القبض على رجلين كانا يستقيان و ساقتهما إلى معسكر المسلمين. كان النبى يصلى... مستغرقاً فى رحلة فى عوالم سماوية بعيداً عن ويلات الأرض و ما يجرى فوق كثبان الرمال، ولما عاد إلى الأرض وجد بعض المسلمين ينهالون عليهما ضرباً... تمتم النبى مستنكراً: - إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما؟!! [صفحه ۶۰] ونظر النبى اليهما وهتف: - صدقا واللّه.. انهما لقريش.. انهما لذات الشوكة. وأردف متسائلاً: - كم القوم؟ - كثيرون. - ما عدّتهم. - لا ندرى. - كم ينحرون؟ - يوماً تسعاً و يوماً عشراً. التفت النبى إلى أصحابه: - القوم ما بين تسعمائة والألف. ثمّ تساءل: - فمن فيهم من أشراف قريش؟ - قال أحدهما: - عتبة بن ربيعة و أخوه شيبة.. النضر بن الحارث، وأضاف الآخر: - و فيهم أمية بن خلف و نبيه بن الحجاج و اخوه منبه و عمرو بن ود.. [صفحه ۶۱] التفت النبى إلى اصحابه و قال بحزن: - هذه مكة قد القت اليكم أفلاذ كبدها. تفجّر فى قلوب المهاجرين غضب مقدس وهاهى رؤوس الشرك تزحف اليهم و قد حان وقت يثأر فيه المظلوم من الظالم. كان بلال منسحباً داخل نفسه و قد تداعت فى أعماقه صور سوداء و كان وجه «اُمية بن خلف» محفوراً فى ذاكرته بقسوة.. ما يزال جسده يئن من سياط أمية و شعر بثقل صخرة رهيبة تجثم فوق صدره فندت عنه آهة ألم: - آه.. اُمية لا نجوت إن نجا. برقت عيناه غضباً و حانت منه التفاته فرأى عماراً، و قد علت وجهه مسحة من وجوم... أدرك بلال ان صاحبه هو الآخر يستعيد حوادث رهيبة. لقد شهد مصرع والديه بحراب «أبى‌جهل» ذلك القرشى المتوحش. أصدر النبى أمره بالتحرك صوب آبار «بدر» حتى اذا وصلوا أدنى المياه نزل النبى و كان «الحباب» و هو رجل رشيد يمسح الأرض بعينين ثاقبتين، اقترب من النبى و قال بأدب: - يا رسول‌اللّه! أكان اختيارك للمكان أمراً من

اللّه ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب؟ [صفحه ۶۲] أجاب النبى باهتمام: - بل هو الحرب و المكيدة. - ليس هذا بمنزل يا رسول‌اللّه... انهض بالناس حتى نعسكر أدنى الماء نشرب و لا يشربون. - لقد أشرت بالرأى. و سرعان ما اتخذ المسلمون مواقعهم فى الجهة الشرقية من الوادى الفسيح... حل المساء وغفت العيون تترقب ما يسفر عنه عالم الغد. [صفحه ۶۳]

القسمت ۱۲

أشرق يوم الجمعة و التاريخ يشير إلى السابع عشر من شهر رمضان. عسكرت قوات قريش، فى ثنايا التلال القريبة من وادى بدر، وبدا أبوجهل أفعى رقطاء تتلمظ. هتف ساخراً و هو يشير إلى قلة المسلمين: - ما هم إلا أكلة رأس لو بعثنا اليهم عبيدنا لأخذوهم باليد. تساءل عتبة بن ربيعة: - ربما كان لهم كمين أو مدد. - كلا يا صاحبى لقد بعثت «ابن وهب» وطاف حول مواقعهم فلم يرَ شيئاً. قال شيبة معقباً: - لكنه قال شيئاً آخر غير هذا. امتعض أبوجهل، فتساءل عتبة: [صفحه ۶۴] - وماذا قال؟ - جاء مبهور الأنفاس و نثر كلماته كالنبل: ما رأيت شيئاً ولكنى وجدت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا... نواضح يثرب تحمل الموت الناقع. أطرق عتبة. كان يفكّر فى المصير... ألقى أبوجهل نظرة حانقة و بصق على الأرض ثم غادر المكان. ارتقى عتبة جمله الأحمر و قد دوّت فكرة العودة إلى مكة فى رأسه و أصغت عشرات الرجال إلى ما يقول صاحب الجمل الأحمر: - يا معشر قريش! لن تصنعوا شيئاً بلقاء محمّد وأصحابه. و بين أصحابه رجال من بنى عمومتكم أو أخوالكم.. و هل يقتل المرء ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته.. ارجعوا و خلّوا بين محمد و سائر العرب.. يا معشر قريش أطيعونى اليوم واعصونى الدهر، انّ محمداً له إلٌّ و ذمة.. فان يكن صادقاً فأنتم أعلى عيناً به، و ان يكن كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمره. جحظت عينا «أبى‌جهل» و خرجت الكلمات من فمه ممزوجة بالبصاق: - انظروا ماذا يفعل الجبن فى النفوس... انظروا إلى سيد من [صفحه ۶۵] سادات قريش و هو يرتعد من سيوف يثرب. وفى أدنى الوادى كان الرسول يراقب عن كثب ما يجرى فى أقصى الوادى... هناك على جمل أحمر رجل يحذر قومه سوء العواقب. تمتم النبى بلهجة يشوبها اليأس: - إن يكن فى أحدهم خير ففى صاحب الجمل الأحمر. اتصلت السماء بالأرض وهبط جبريل كوكب الأرض فى تلك البقعة من دنيا اللّه... و سرت كلمات السماء فى قلب محمد:«فإن جنحوا للسلم فاجنح لها». هتف النبى و جبينه يتلألأ: - يا معشر قريش! ارجعوا من حيث أتيتم فلأن يلى هذا الأمر منى غيركم أحبُّ إلىّ من أن تلوه أنتم. تمتم عتبة و هو يصغى إلى ابن مكة الذى فرّ منذ عامين: - ماردّ هذا قوم ثم افلحوا. تجمعت فى السماء النذر، و بدت السيوف بروقاً مخزونة بالرعود، نزل عتبة عن جمله الأحمر، و تقدم مع أخيه شيبة وابنه الوليد إلى الأرض التى تفصل ما بين الجبهتين و نادى عتبة بصوت غاضب و كان أبوجهل قد استفزّه: [صفحه ۶۶] - يا محمد أخرج الينا أكفاءنا من قريش: التفت النبىّ إلى عبيدة. - قم يا عبيدة بن الحارث. و إلى حمزة بن عبدالمطلب و إلى على بن أبى‌طالب. كانت راية «العقاب» تخفق فى قبضة علىّ فركزها فى الأرض ثم انطلق إلى ميدان الصراع... و تراءى امام عينيه طيف جميل. كان وجه «فاطمة» يبتسم له وقد شعّ من عينيها نورٌ سماوىٌّ. ران الصمت على الجبهتين، ما خلا ستة سيوف كانت تلمع وسط الغبار كبروق غاضبة، فجأة ارتفع السيف «ذوالفقار» ثم هوى فهوت معه جمجمة الوليد، ثم ارتفع مرة اُخرى ليهوى على عتبة ثم على شيبة و تساقطت رؤوس الشرك... تعفّرت بالرمال و كانت العيون جاحظة تنظر برعب إلى شىء ما. كبر النبى و كبر معه المسلمون و انتقل اسم علىّ على الألسن فى الفضاء... وفى التاريخ... وسمع النبى يقول: - والذى نفس محمّد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلّا أدخله اللّه الجنة. و تراءت للذين سمعوا كلمات الرسول جنّات تجرى من تحتها [صفحه ۶۷] الأنهار... فإذا السيوف ظلال لجنّة عرضها السماوات و الأرض. كان سقوط صناديد قريش صرعى فوق الرمال إيذاناً ببدء معركة رهيبة. و بدأت قريش هجوماً عنيفاً و تساقطت السهام و النبال كالمطر... وقف المسلمون صفّاً واحداً كالبنيان المرصوص، وصمدوا أمام هجمات مدمّرة كعاصفة هوجاء... تصاعد غبار كثيف و تساقط القتلى والجرحى كجراد منتشر. و شيئاً فشيئاً خفّت حدّة الهجوم... وفى هذه اللحظة الحاسمة دوت كلمة القائد العظيم مختصرة و مصيرية: - شدوا. اندفع المسلمون كالسيل و كانت راية العقاب تخفق فى قبضة على

قوية ثابتة؛ و اختلطت أصوات عديدة بين صهيل الخيل ورغاء الجمال وقعقعة الأسلحة وصيحات الرجال و كانت:«أحَد... أحَد» تتردد فى فضاء المعركة. و تفجّر غضب مقدس فى القلوب و قد رأى المعذبون جلّاديهم... و غادر النبى مقر القيادة و بقى أبوبكر وحيداً. اندفع النبى يقاتل فى الخطوط الأُولى و ظهرت فى الأُفق سحب بيضاء شفافة... تشبه أجنحة الملائكة و كان النبىّ يهتف بحماس: - سيهزم الجمع و يولّون الدبر، بل الساعة موعدهم والساعة [صفحه ۶۸] أدهى وأمرّ... استمر القتال مريراً... واقتربت المعركة من نهايتها بعد ان تمزّقت خطوط المشركين ولاحت فى الأُفق هزيمة و شيكة. هتف النبى غاضباً و هو يقذف حفنة من الحصى: - شاهت الوجوه! انفجرت ساعة الانتقام وقذف بركان الثأر حممه مدوّية وهتف بلال وهو يرمق جلّاده بغضب: - اُميّة! رأس الكفر لانجوت إن نجا... حاول بعض المسلمين اعتراض بلال. أرادوا عدوّهم أسيراً فصاح بلال: - يا أنصار اللّه.. إنّه اُمية رأس الكفر... لانجوت ان نجا... انقض بلال على جلّاده فهوى كأنما سقط من شاهق... ولأوّل مرّة تنفّس بلال الصعداء وانزاحت عن صدره صخرة قاسية كانت تجثم فوق اضلاعه فدمعت عيناه وراح ينظر إلى السماء فى امتنان. حاول أبوجهل فى عناد قديم أن يمنع هزيمة «قريش» و كان يقاتل خلف سياج من رماح رجاله وفى مقدمتهم ابنه عكرمة... ولكن أنّى لهؤلاء الحفنة من الحمقى الوقوف بوجه رياح النصر وهى تعصف بعنف من أدنى الوادى... اقتربت هتافات: أحَد.. أحَد... و ماهى إلّا لحظات حتى هوى أبوجهل وارتطم رأسه بالأرض. [صفحه ۶۹] وضع عبداللّه بن مسعود قدمه على عنق أبىجهل الذى رمقه متسائلاً: - لمن الدائرة؟ - للّه ولرسوله وللمؤمنين. كانت قدم ابن مسعود تدقّ عنق أبىجهل،فتمتم حانقاً: - لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعى الغنم. حاول أن يبصق كعادته فسقط البصاق فوق وجهه وجحظت عيناه. كان هو الآخر ينظر برعب إلى شىء ما. [صفحه ۷۱]

القسمت ۱۳

يثرب تتألق فرحاً وقد عاد النبىّ ورايات النصر تخفق فوق رأسه. كانت سعفات النخيل تتمايل طرباً.. توجّه النبىّ إلى المسجد فصلّى ركعتين... كان المسجد هادئاً والسكينة نبع يترقرق فى جوانبه، نهض النبىّ واتجه صوب منزل فاطمة كعادته... هبت الفتاة لاستقبال أبيها العظيم، و كانت ابتسامة مشرقة تضىء قسمات وجهها الأزهر. طبع الأب قبلة دافئة على جبين ابنته أودعها كلّ معانى الأُبوّة والحبّ.. و وجدت فاطمة نفسها فى أحضان امّها الدافئة... دخلت عائشة و كانت تغار من فاطمة فقالت مستنكرة: - اتقبلها وهى ذات بعل؟ أجاب النبى مدارياً: [صفحه ۷۲] - واللّه لو علمت ودّى لها لازددت لها حباً. أجابت ممتعضة: - أنت لاتفتأ تكرّر ذلك و تذكر امّها العجوز و قد هلكت فى الدهر الأول فأبدلك اللّه خيراً منها. أجاب النبىّ بحزن: - لا واللّه ما أبدلنى خيراً منها... آمنت بى إذ كفر بى الناس، وصدّقتنى إذ كذبنى الناس، وانفقت مالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى اللّه منها ذريّة دون النساء. ارتفع صوت عائشة فقالت فاطمة و هى تنسحب بهدوء: - يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى. ردت عائشة و قد احمر وجهها غيظاً: - و اللّه يا بنيّة خديجة ما ترين إلّا أن لأُمّك علينا فضلاً و أى فضل كان لها علينا؟! ما لهذه المرأة لا تفتأ تذكر امرأة توسدت التراب من ثلاث سنين إلا لأنها ولدت فاطمة؟ و فاطمة فتاة تنم عن سيدة كما ينم البلور عما فيه و قد ولدت سيدة النساء. تدخل النبى غاضباً: - يا حميراء ان اللّه بارك فى الودود الولود. و أردف و هو يكفكف دمعة شرقت من عينيه: [صفحه ۷۳] - رحم اللّه خديجة. صرخت عائشة ثائرة: - إنّك تحبّ فاطمة و عليّاً أكثر منى و من أبى. ماذا تقول فاطمة لهذه المرأة. هل تقول لها كيف لا يحب عليّاً و قد رباه فى حجره، فلما اشتد عودة آمن به وفداه بنفسه يوم هاجر، و فى بدر و قد نصر اللّه المسلمين و هم قلة. أتقول لها أن أباك كان مختبئاً فى «العريش» و كان علىّ يقاتل... يقاتل بضراوة فصرع لوحده خمسة و ثلاثين من صناديد قريش من أصل سبعين. ماذا تقول لهذه المرأة التى أفقدتها الغيرة صوابها، ماذا تريد من أبى و زوجى... كانت لوعة تتأجج فى روحها. - لك اللّه يا أبى. و ماذا بوسعها أن تقول... لا لا... لن تقول شيئاً... لن تضيف همّاً جديداً إلى هموم النبى و قد تألب العرب عليه... لقد تعلّمت فاطمة الصبر... رضعته مع لبن اُمّها.. مرّاً حنظلاً ـ لكنها تعودت مذاقه حتى بات شيئاً مألوفاً. و فى البيت نادت فاطمة أباها: - يا رسول‌اللّه: ولكن، لا جواب.. و

نـادت مرة اُخرى يـا رسول‌اللَّه. [صـفحه ۷۴] كـانت كلمـات اللَّه تترقرق فى أعماقهـا: «لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كـدعاء بعضـكم بعضـا». هتفت فاطمـة: - يا رسول‌اللَّه! التفت الأب العظيم و كان ينتظر منها كلمـة أقرب إلى قلبه: - يا فاطمـة! انّها لم تنزل فيك.. أنتِ منى و أنـا منـك... قـولى يـا أبـه، فانهـا أحيى للقلـب و أرضـى للرب. سـأل على مبتسـماً و قـد أراد أن يشـيع البهجـة فى الحجرة: - يا رسول‌اللَّه، أنـا أحب اليـك أم فاطمـة؟ ضـحك النبى و قـال بود: - أنت عنـدى أعز منهـا و هى أحب منـك. طافت الابتسامـة الوجوه كفراشة تدور بين زهرات ثلاث. التفت النبىّ إلى ذكرى خديجة و قال مستفسـراً: - يا فاطمة ما كانت حاجتك أمس؟ سـكتت فاطمة، لاذت بالصـمت... لقـد اكتشف أبوها اذن انها جاءته لحاجة ثم عادت دون ان تسأله، وهاهو اليوم يسألها وهى تود أن لاتسأله، على أن منظرها يشفّ عمّا بها خاصّـة كفيّها فما تزالان تؤلمانها من كثرة ما طحنت بالرحى. [صـفحه ۷۵] تـدخل على و قد عرف ان فاطمة لن تقول شيئاً: - أنا أخبرك يا رسول‌اللَّه... انّها اسـتقت بالقربـة حتى أثرت فى صـدرها و جرت بالرحى حتى مجلت يداها و انها تسألك جارية تكون لها عوناً فى ذلك... شـعر النبى بالحزن يعتصـر قلبه وانبجست من عينيه الدموع و قال بلهجة تنم عن اعتذار عميق لابنته: - يا بضـعة محمـد، ان فى المسـجد اربعمائـة رجل ما لهم طعام و لا ثياب.. فتعجلى يا بنتاه مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة... وأقبل النبى على عزيزته يرفـدها من روحه العظيمـة فقـال: - ألاـ أعلمك ما هو خير لك من الخادم. - أجل يا أبه. - تسـبحين اللَّه ثلاثاً و ثلاثين مرّة و تحمـدين ثلاثاً و ثلاثين مرة و تكبرّين أربعاً و ثلاثين؛ تلك مئة باللسان و ألف حسـنة فى الميزان. ابتسـمت فتاة الأنبياء. ظهر البِشـر فى عينيهـا العميقتين عمق البحار... وهمست فى نفسـها: - طلبنا الـدنيا فجاءت لنا الآخرة. و يمرّ عام. تعاقبت فصوله الأربعـة و انطوت أيامه ولياليه. [صفحه ۷۷]

القسمت ۱۴

اطلّ شهر رمضان و تألقت لياليه الجميلة... السماء تكتظ بالنجوم... وصفاء لا عهد ليثرب به يسود المدينة، وطافت آيات القرآن بساتين النخيـل و الأعناب. فاطمـة صائمـة، و الهلال الـذى بزغ فى سـماء يثرب ينمو و يكبر، و جنين فى بطن فاطمـة يتحرك يفيض بالحياة... والعيون تترقب كوكباً سيشـرق على الدنيا. كبر الهلال أصـبح نصف دائرة من فضة... و تدور الليالى حتى إذا أصـبح القمر بدراً، بدأت لحظـة المخاض. تألق الأمل فى بيت على.. وأطل على الـدنيا صبى عليه سـيماء محمـد. خفّ النبى إلى منزل فاطمـة، و البشـرى تطوف فوق جبينه. هتف النبىّ بأسـماء و كانت عنـد فاطمة: - هاتى إلى إبنى. [صـفحه ۷۸] تقدمت اسـماء تحمل طفلاً ملفوفاً بمنديل أصفر. احتضن النبى حفيـده وطوح بالمنـديل الأصـفر بعيـداً و قال: - يا أسـماء ألم أعهـد اليكم ان لا تلفوا المولود بخرقة صـفراء... أسـرعت اسـماء و أحضـرت منديلاً أبيض، وبدا الوليد حمامة بيضاء، أو غمامة هبطت من سمائها إلى الأرض. تساءل النبىّ عن اسمه فقال على: - ما كنت لأسـبق رسول‌اللَّه. - يا على أنت منى بمنزلة هارون من موسـى فسـمه باسم ابن هارون. - و ما كان اسـمه يا نبىّ‌اللَّه. - اسمه شبر. - العرب لا تعرف هذا الاسم. - سـمه حسنا. - كانت فاطمة سعيدة و كانت سعادتها انعكاساً لسعادة والدها كما ينعكس النور فى المرايـا... كـانت فاطمـة فرحـة لأنهـا لم تر أباها سـعيداً كهـذا اليوم، طافت أمام عينيه سـعادة قديمـة يوم قـدمت خديجـة طفلته الحبيبة فاطمة... يوم بشّره جبريل بالكوثر. [صفحه ۷۹] مرت سبعة أيام.. أيام ملونة كقوس قزح... حتى اذا أطلّ اليوم السابع... نحر النبى كبشاً وعقّ عن حفيـده.. لقـد فدت السـماء اسـماعيل بكبش وهاهو حفيد ابراهيم يفدى الوليد المبارك بكبش أملح.. وأعطى القابلة فخذاً و ديناراً... وضع النبى الوليد فى أحضانه و حلق شعره و تصدق بوزن الشعر فضة. وأدرك الذين رأوا النبى و حفيده و تلك السعادة التى كـانت تتـدفق فى وجه النبى ان حباً عظيماً قـد تفجر فى قلب الرسول و ان لهـذا الوليـد المبـارك شأناً عظيماً. و تـدور الأيّام و القلب الصغير ينبض بهدوء كنهرٍ هادئ... استعادت فاطمة نشاطها بل شعرت ان قوّة كامنة قد تولّدت فى روحها.. قوّة تدفعها إلى العمل.. إلى ان تلمس الأشـياء فتمنحهـا اسـمها و جمالهـا. رشت الفنـاء بالمـاء.. تنـاثرت من بين أصـابع كفّهـا حبّـات بـاردة كـانت تتألق فى ضوء الشـمس.. وامتلأ الفضاء برائحة طيبة تشبه رائحة الأرض المرشوشة بالمطر... رائحة تشد المرء إلى أن يفتح صدره فيستنشق الهواء يملأ

به رئتيه. كان الحسن فى مهده غافياً... وطيف ابتسامة يلوح فوق فمه [صفحه ۸۰] الدقيق كوردة تتفتح للربيع... ربما كان يحلم بأشياء جميلة... أشياء أودعها اللّه فى النفس يوم خلق الإنسان. كانت فاطمة ترنو إلى الوليد الذى صيّرها امّاً. و قد ولدت فاطمة الأُمّ.. تدفق نبع الأُمومة فى قلبها فياضاً رقيقاً... جلست إلى الرحى و مستها فدارت حول قطبها هادئة. و بصوت رخيم راحت بنت النبى ترتل آيات جاء بها جبريل من السماوات البعيدة لشد ما تحب فاطمة تلك الفتاة الطاهرة... مريم ابنة عمران... انساب الصوت رقيقاً مؤثّراً كساقية: «وإذ قالت الملائكة يا مريم إن اللّه اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين.. يا مريم اقنتى لربِّك واسجدى واركعى مع الراكعين... قالت الملائكة يا مريم انّ اللّه يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً فى الدنيا و الآخرة و من المقرّبين». رنت فاطمة نحو وليدها.. حركت مهدهُ بقدمها وراح المهد يتهادى على هون كزورق فى بحيرة رائقة. الرحى تدور بهدوء.. و كلمات السماء تنساب بخشوع.. و المهد يتأرجح برفق.. و تلتقى هذه الأشياء لتملأ حياة فاطمة حيث الزمن نهر تتدافع امواجه فى رحلة نحو البحر الكبير، أو رحى كبيرة تدور حول قطب ثابت لايعرف الدوران. [صفحه ۸۱]

القسمت ۱۵

جلس أبوحفصة يفكّر، والليل و الظلام فلاة واسعة يبذر المرء فيها ما يشاء و يزرع ما يشاء و يحصد ما يشاء، يطير فى السماء أو يمشى فى الأرض يخرقها أو ينافس الجبال طولاً.. جلس أبوحفصة وحيداً وبدا جبينه الواسع براقاً فى ضوء القنديل... كان يفكر فى ماضيه.. شجرة قصيرة النسب.. ليس لها جذور فى أرض الجزيرة... فى مكة كان يهرب من نفسه يشرب الخمر كؤوسا تنسيه ماضيه فيعيش فى بعض خيالاته... أو ربما ثأر من بعض أهل الشرف، فيتغاضون عنه.. و السكر عذر. تذكر فرحته يوم «أسلم»... محمد منحه الأمل فى حياة لا ـ حسب فيها و لا ـ نسب إلّا التقوى ولكن خابت آماله فى المدينة ما يزال البعض ينظرون اليه نظرات مستفهمة... فكان يزيد التصاقه بالنبىّ. زوّجه ابنته حفصة. أصبح صهراً لرجل عظيم فى الجزيرة كلّها، [صفحه ۸۲] صادق أبابكر؛ وأبوبكر له منزلة. هاجر مع النبى.. بات معه فى الغار امتدّ به الليل.. وأضحت النجوم أشدّ لمعاناً.. اشتعلت فى أعماقه رغبة مجنونة فى الهرب.. تناول جفنة صغيرة فملأها خمرة معتقة و أفرغها فى جوفه. شعر بأن أعماقه تشتعل، وزاد وجهه حمرة كجمرة متوقدة فى الظلام.. صب لنفسه جفنة أُخرى و اخرى... اشتعلت عيناه.. تراقصت فيهما اضواء القنديل... عوت ذئاب، و ولد وحش فى أعماقه. كان الوحش يكبر و يكبر.. يزداد شراسة. فجأةً هب واقفاً حتى كاد رأسه أن يرتطم بالسقف... سوف يحطّم بيوت يثرب... اتّجه إلى منزل «ابن عوف» لشدّ ما يكره هذا الرجل.. يفاخر بنسبه يتباهى بذهبه و فضته.. طرق الباب بعنف.. فخرج الرجل و هو يحاول فتح عينيه بصعوبة، التمعت عينا أبى‌حفصة و هو يهوى على رأس ابن عوف بقبضته، ارتد الرجل مذعوراً و ما لبث أن تهاوى فى عتبة الباب. راح عمر يجتاز البيوت حتى اذا جعلها وراءه و بدت الصحراء أمامه بعيدة و السماء تكتظ بالنجوم.. تذكر ما جرى قرب آبار بدر... تذكر صناديد قريش... و هم يسحبون فوق الرمال ثم يرمى بهم فى القليب، رأى أباجهل جثّة هامدة.. و رأى أُمية بن خلف و عتبة و شيبة والوليد. رآهم صرعى و كانوا يملأون مكة هيبة.. لقد أخذهم الموت [صفحه ۸۳] دون عودة... و خلفوا وراءهم ذهباً و فضة و نساءً جميلات و خلفوا شجرة مجدهم الرفيع. انطلق أبوحفصة يتغنى بشعر الأسود: وكاين بالقليب قليب بدرٍ من القينات والشرب الكرام و كاين بالقليب قليب بدرٍ من السرب المكامل بالسنام أيدعونا ابن كبشة ان سنحيا وكيف حياة أصداء وهام أيعجز أن يردّ الموت عنى و ينشرنى اذا بليت عظامى سمع بعضهم صوت عمر يشقّ صمت الليل ففضّ ل السكوت... رجل عنيف حادّ الطبع. ولكن «ابن عوف» لم يتحمل كان يشق طريقه فى الظلام إلى منزل النبى.. انه يعرف رسول‌اللّه. سوف يجده مستيقظاً يعبد اللّه، وربما ينتظر أوبة رجال بعثهم فى الصحراء يستطلعون له أخبار القبائل و أخبار قريش فقريش لا تنام على الثأر. طرق ابن عوف الباب وانتظر... اطل النبى بوجهه المضىء.. رأى [صفحه ۸۴] صاحبه ابن عوف، وخيط من الدم يلون رأسه و قطرات حمراء فوق ثوبه. تمتم ابن عوف بشىء من العتب: - عمر يا رسول‌اللّه... أدرك النبىّ كل شىء... ما يزال صاحبه يشرب الخمرة و يفعل ما يحلو له... بان الغضب على وجه النبىّ بعد ما عرف بأن صاحبه

يتغنى بشعر اعدائه.. برده كلمة بكلمة و حرفاً بحرف... و الأنكى من ذلك أنّه يحرض المشركين لإطفاء النور الذى توهج فى الجزيرة. و ربّما لأوّل مرّة؛ رأى المسلمون رسولاللّه يتميز غضباً.. حتى اذا وقف على رأس صاحبه. هتف أبوحفصة و قد عاد إلى وعيه: - أعوذ باللّه من غضب اللّه و غضب رسوله. كاد الرسول أن يهم به لولا- كلمات سمعها هدأت نفسه وكظم غيظه.. يا للإرادة تضع نفسها فوق فوهة بركان ثائر.. وهكذا تعرف الرجال فى مواقف كهذه دونها لهوات الحرب و ظلال السيوف. عاد النبىّ إلى منزله يفكر فى آفة العقول هذه ماذا تفعل بالناس.. هؤلاء الفارّون من ضوء النهار إلى هلوسة الظلام. نهض أبوحفصة يجرجر قدميه عائداً هو الآخر إلى بيته.. وكانت [صفحه ۸۵] العيون تحاصره.. تستنكر هذيانه.. رفع عمر يديه إلى السماء و هتف: - اللّهم بين لنا بياناً شافياً فى الخمر. وفى الصباح سمع أبو حفصة بآية حملها جبريل من قلب السماوات: - إنّما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة و البغضاء فى الخمر و الميسر و يصدّكم عن ذكر اللّه و عن الصلاة فهل انتم منتهون. هتف عمر و هو يحطّم آنية الخمر بعصبية: - نعم انتهينا... نعم انتهينا. سادت المدينة حركة غير عادية و توالت الحوادث.. اليهود يتآمرون خلف حصونهم يحرضون المشركين كافة على غزو المدينة... والنبىّ قلبه على المدينة يخاف عليها الغدر.. و كانت السماء تحرس مدينةً آوت النبىّ... تحميها من دسائس اليهود. [صفحه ۸۷]

القسمت ۱۶

مناحات مكة ما تزال تتصاعد فى فضاء الجزيرة كخيوط الدخان، و قريش تعدّ العدّة للثأر تحد سيوفاً و خناجر، «أبوسفيان» يصرّ على نواجذه غيظاً يحاول أن يفعل المستحيل و قد تحوّلت زوجه إلى أفعى رهيبة فى عينيها يسكن حقد يحيل السلام إلى حرب ضروس و الأخضر إلى رماد و دخان. هند لا تنام الليل. تبحلق فى الظلام كأفعى اسطورية. و أبوسفيان يقود خيلاً و رجالاً، يغير على المدينة فى قلب الليل. يتسلّل كحيّة تسعى. و يجد «ابن مشكم» زعيم بنى النظير ينتظره يدلّه على نقاط الضعف فى المدينة. يعلّمه كيف يقتل محمداً عدوهما المشترك. كان كعب بن الأشرف يصغى بصمت. يراقب سيّده كيف يحوك خيوط العنكبوت و أبوسفيان يتلمظ كحيّة عيناه تستعران كجمرتين و بدت ظلاله على الحائط شيطاناً مريداً. [صفحه ۸۸] قال أبوسفيان وقد أثاره صمت كعب؛ ربما تعجب من حماس اليهود لقتل محمد وهم أهل كتاب: - أقسم عليك بالتوراة؛ ديننا خيرٌ أم دين محمد. انتبه كعب كما لو لسعته عقرب و قال بغيظ: - بل دينكم يا أباسفيان أهدى من دين محمد. قال ابن مشكم بخبث يهودى: - أتراه كاذباً يا أباسفيان؟! ردّ أبوسفيان و قد ملّ: - كيف و قد كنّا ندعوه الصادق الأمين. - فَلِمَ تقاتلونه إذن؟ شعر أبوسفيان بالنار تشتعل فى رأسه: - كنّا و بنوهاشم مثل فرسَىِ رهان كلما جاءوا بشىء جئنا بمثله.. حتى ظهر محمّد فماذا يبقى لنا. قال كعب و هو يصب الزيت فى النار: - لو اجتمعت قبائل العرب عليه ما وصل الأمر إلى هذا الحد. قوافلكم، هيبتكم و حيت آلهتكم فى خطر، تغدّوا به قبل أن يتعشى بكم. نهض أبوسفيان حانقاً و هتف بعصبية: - لن يطلع القمر حتى تسمع بمناحة فى بيوت يثرب. [صفحه ۸۹] أسرع أبوسفيان وأمعن فى الصحراء إلى حيث يعسكر مئتان من خيله و رجاله. المدينة تغفو هادئة تنتظر الفجر.. تترقب صياح الديكة ليوم جديد تزرع و تبنى و تفجّر الصخر ينابيع... سنابك خيل مجنونة تهزّ الأرض و تثير غباراً امتزج مع غبش الفجر. فى «العريض» من أطراف المدينة شبت النار فى منزلين وفرّت النسوة والأطفال و ذبح رجال.. و احترقت بساتين النخيل وفرّ المغيرون لايلوون على شىء. كان أبوسفيان يراقب متلذذاً منظر النار و هى تلتهم أهداب يثرب. ودّ ان هنداً كانت حاضرة علّها تطفئ غليلها. صراخ الأطفال والنساء يملأ الفضاء المفعم بالسكينة. وتناهت إلى أُذنيه صهيل خيل غاضبة فهمز فرسه تسبق الريح باتجاه مكّة. استيقظت مكة وقد سادتها حمى الحرب وراحت تنفث فى الفضاء روح الثأر... ثلاثة آلاف محارب يلتفون حول أبىسفيان، والتفت حول هند أربع عشرة امرأة.. و ثارت الحمية.. حمية الجاهلية. و تصاعد دخان البخور لهبل إله الحرب ليأخذ لهم ثأرهم من محمد. على ضوء سراج واهن بدا «العباس» مهموماً و هو يكتب إلى ابن [صفحه ۹۰] اخيه رسالة يحذّره فيها من حملة وشيكة لقريش. وفى جوف الليل انطلق فارس يسابق الريح و يطوى رمال

الصحارى لا يلوى على شيء. كان النبى فى «قباء» على مبعدة أربع أميال جنوب يثرب... فى تلك الأرض التى وضع قدمه فيها آمناً بعد هجرة مثيرة. وقد جاء ليراقب عن كثب ما تموج به الصحراء من غدر و دسائس... القبائل لا تريد ليثرب السلام؛ تخطب ودّ قريش حيث مكة أُم القرى و بيت الآلهة.. و قريش لاتنام على الثأر.. لا شيء فى الأُفق البعيد سوى الرمال.. الصمت يهيمن على الأشياء يزيدها رهبةً.. كان أبىّ بن كعب يدقّق فى نقطة سوداء لاحت فى الأُفق.. فهتف متسائلاً: - اظنه فارساً يسابق الريح. - اجلّ يبدو انّه قادم من مكة. توقف الفارس بعد أن كبح جماح فرسه بعنف... أثارت الفرس الرمال المتوهجة وقفز الفارس مبهور الأنفاس يحمل فى يمينه رسالة من قلب ينبض بحبّ النبى. لا أحد يعرف مضمون الرسالة التى قرأها ابن كعب على النبىّ.. ولكن الوجوم الذى غمر وجه الرسول يشفّ عن أمرٍ مثير و حادثة ستهزّ الصحراء و التاريخ. [صفحه ۹۱]

القسمت ۱۷

قمر الرابع عشر من شوّال يتألق فى السماء يزدهى بهالته بين النجوم، و قناديل المدينة تتوهج.. ترسل ضوءاً ذهبياً. وبدت الكوى ينابيع تتدفق بالنور. وفى المسجد التف المؤمنون حول الرسول، شباب و شيوخ و كهول يتداولون أمراً هامّاً. قريش تزحف صوب يثرب. قال النبى:- نقيم فى المدينة وندعهم حيث نزلوا فان أقاموا أقاموا بشر مقام.. و ان هم دخلوا علينا قاتلناهم. اخرج النفاق رأسه إذ قال ابن سلول و قد صادفت الفكرة هوىً فى نفسه: - نعم يا رسولاللَّه... نقيم فى المدينة. ساد الوجوم وجوه الشباب... كانوا يتمنون الحرب فى الصحراء.. [صفحه ۹۲] والحرب فى أزقة المدينة لا يشبع حماسهم... و كيف ينعمون بحرب تشارك فيها النسوة و الأطفال. هتف شاب لم يحضر بدراً يتمناها منذ عام: - ماذا ستتحدث العرب.. جبنا عن اللقاء و قريش تشنّ علينا الغارات. هتف آخر: - اخرج بنا يا رسولاللَّه إلى أعداتنا.. حتى لا يزدادوا جرأة. ساد الحماس و بلغ ذروته، وضاع صوت العقل. وعندما ينفلت زمام العاطفة تصبح فرساً جموحاً لا تصغى لأحدٍ و لا يقف فى طريقها شيء. هبّت العاصفة لا يعتورها أحد، وأضحى من الحكمة مماشاتها و توجيهها، والحدّ من عنفها. انتبه بعضهم و قد تأثر لمنظر النبىّ يعدل درعه، عرضوا عليه القبول برأيه و البقاء فى المدينة، فقال بحزم: - ما ينبغى لنبىّ لبس لامته أن يضعها حتى يحكم اللَّه بينه و بين عدوّه. وأردف ليحكم قبضته على العاصفة: - عليكم بتقوى اللَّه و الصبر عند البأس وانظروا ما آمُركم فافعلوا. [صفحه ۹۳] وقفت فاطمة تودّع أباها و بين ذراعيها صبىّ له من العمر شهر، اعتنقه النبىّ.. راح يملأ صدره من شذى عطر له رائحة الجنّة، و همس بحبّ: - انّه ريحانتى من الدنيا.. و اُمّه صدّيقة. ودّع الرسول يثرب، و معه ألف مقاتل، و فى ثنيّة «الوداع» حيث الجادّة التى تؤدى إلى مكة. و عندما وصل «الشيخان» و هما جبلان فى أطراف المدينة قام النبىّ باستعراض لقوّاته فأرجع من الشباب من كان دون الخامسة عشرة... طلع الفجر و وصل النبىّ «الشوط»- بستان بين المدينة و جبل «اُحد».... و ذرّ رأس النفاق قرنه فأعلن تمرّده على الرسول. عاد «ابن أبىّ» و عاد معه ذيوله و كانوا ثلاثمئة، فأحدث ذلك شرخاً فى جيش النبىّ و هو على و شك الاشتباك. عسكرت قريش فى وادى «قناة» وانتشرت فى أرض سبخة، قاطعةً الطريق على جيش المسلمين. تساءل النبى عن دليل يمكنه هداية الجيش على طريق يؤدى إلى اُحد لا يمرّ على جيش المشركين. هتف «أبوخيثمة»: [صفحه ۹۴] - انا يا رسولاللَّه. - سر على بركة اللَّه. سلك الدليل «حرّة» بنى حارثة و هى أرض ذات حجارة سوداء منخورة كأنها شويت بالنار... كانت المزارع على يمين الجيش المتقدم وقوّات المشركين على شمالهم واتجه الدليل شمالاً نحو جبل اُحد، وقطع وادى «قناة». دخل الجيش الشِعب المطلّ على الوادى، تاركاً الهضاب والجبل وسفوحه فى ظهره. نظم النبى جنوده صفوفاً فى ثلاثة أنساق و انتخب خمسين من أمهر الرماة، وأمرهم بالمرابطة فوق جبل «عينين» و هو جبل صغير يقع فى الجنوب الغربى من معسكر النبى و على بعد مئة و خمسين متراً من مقرّ القيادة، و كان اجراؤه هذا تحسباً من حركة التفاف يقوم بها المشركون، و كان النبى يعلم ان لدى قريش قوّة كبيرة من الفرسان تحت إمرة «خالد بن الوليد» و كانت هذه القوّة مصدر قلق للنبى. قال النبى لابن جبير قائد الرماة: - انضحوا الخيل بالنبل، لا يأتونا من خلفنا... والتفت إلى بقية الرماة: - احموا لنا ظهورنا لا يأتونا من خلفنا وارشقوهم بالنبل فان [صفحه ۹۵] الخيل لا تقدم على النبل.. إنّا

لا- نزال غالبين ما لبثتم مكانكم، اللّهم انى أشهدك عليهم. و للمرّة الأخيرة أوصاهم النبى. - إن رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل اليكم، و ان رأيتمونا ظهرنا على القوم و أوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل اليكم، و ان رأيتمونا غنمنا فلا تشركونا، و ان رأيتمونا نقتل فلا تغيثونا و لا تدافعوا عنا. نظم النبى قواته واضعاً فى الخط الأول رجالاً أولى بأسٍ شديد بدا فيهم على و حمزة و أبودجانة و سعد بن الربيع و رجال حملوا أرواحهم فوق الأكف، كما خصّص كتيبة بقيادة المقداد للتنسيق مع الرماة فى صدّ هجوم محتمل قد يقوم به فرسان قريش. تذكر النبى رؤياه. عادت تتمثل أمامه من جديد.. رأى ابقاراً تسر الناظرين.. رآها تذبح فتشحط دماً عبيطاً ورأى فى حدّ سيفه ثلماً... تجمّعت فى السماء النذر و بدت السيوف بين الغبار بروقاً نزلت إلى الأرض و شدّ أبودجانة حول رأسه عصابة الموت كجرح يفور و أدرك الذين رأوه أن الرجل قد اختار الموت طريقاً إلى الحياة. الرجل الذى اختارته السماء رسولاً إلى الأرض يبلّغ رسالته: - ما أعلم من عملٍ يقرّبكم إلى اللّه إلّا و قد أمرتكم به، و لا أعلم [صفحه ۹۶] من عملٍ يقربكم إلى النار إلّا و قد نهيتكم عنه، وانه قد نفث الروح الأمين فى روعى انه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها لا ينقص منه شىء.. المؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد اذا اشتكى تداعى اليه سائر الجسد. و فى المعسكر الآخر فى أرض سبخة تعالت أصوات الدفوف والطبول تشف عن روح همجية متعقشة لرؤية الدماء... تسكر على صوت طبول الحرب تدق بعنف فيستيقظ الشيطان يعربد و يدمّر. خرجت خمس عشرة امرأة ينشدن أناشيد الثأر: و كان صوت هند له نبرة نمرة متوثبة: نحن بنات طارق نمشى على النمارق الدر فى المخانق والمسك فى المفارق ان تقبلوا نعانق ونفرش النمارق او تدبروا نفارق فراق غير وامق وحلم رجال بليالٍ حمراء.. ليال مليئة بالمتعة. و منوا أنفسهم [صفحه ۹۷] بسبى من يثرب فيهنّ حسان من الأوس أو الخزرج. اتسعت الأحداق وعض الرجال على النواجذ... و بدأت قريش الهجوم. بدأت قوّة من المشاة تساندها كوكبة من الفرسان بقيادة عكرمة بن أبىجهل هجوماً على ميسرة الجيش الاسلامى لتدميرها، و من ثم النفوذ إلى عمق الشِعب و ضرب المسلمين من الخلف. قوبل الهجوم العنيف برشقات كثيفة من النبال واعترض المقداد بقوّاته سيل المهاجمين وأرغمهم على التراجع و من فوق سفوح أُحد تدحرجت الصخور و الحجارة فارتد المهاجمون و تشتتوا.. عاود الفرسان الكرة مرة بعد أُخرى ولكن دون جدوى. وفى تلك اللحظات الحساسة أصدر النبى أمره بشن الهجوم المعاكس.. مستهدفاً قلب القوّات المتقهقرة و كان ثقل المعركة يدور حول «لواء» قريش من أجل اسقاطه و تحطيم الروح الجاهلية. وسقط اللواء بضربة من علىّ.. ثم ارتفع مرّة أُخرى ثم هوى على الأرض... ثم ارتفع... ثم هوى ممزقاً فوق الأرض... تزلزلت معنويان المشركين ودبّت فيهم الهزيمة و اطلقت هند ساقيها للريح وسقطت الدفوف و تبعثرت أمنيات زوج أبىسفيان وذهبت أدراج الرياح.... وفى غمرة النصر سقط حمزة. اخترق قلبه رمح وحشى.. [صفحه ۹۸] سقطت ثلمة من سيف محمد. وفوق جبل «عينين» كانت هناك معركة من نوع آخر.. معركة فى داخل النفوس رهيبة مشتعلة.. أشعلتها الغنائم المبعثرة فى الوادى. وأخيراً وبعد صراع عنيف انتصرت النفوس الامارة بالسوء.. و غادر أكثر الرماة مواقعهم «لا يلوون على شىء» و (ابن جبير) يدعوهم.. يذكّرهم بوصايا الرسول. غير أن النفوس التى أصغت إلى فحيح الشياطين نسيت همسات السماء. كان خالد بن الوليد ينتظر الفرصة و عندما شاهد منظر الرماة و هم يهبطون الجبل التمعت فى عينيه حمى الحرب، فاندفعت الخيول كالعاصفة و عمت الفوضى صفوف الجيش الاسلامى... وفرّ المسلمون لا يلوون على شىء، و الرسول ينادى: - أنا رسولاللّه.. هلموا إلى! وبعد لأى تمكن النبى من تجميع أكثر قواته و الانسحاب بهم نحو سفح الجبل. صرخ أبوسفيان فى بطن الوادى: - اعل هبل. وجاء صوت الرسول: - اللّه أعلى وأجلّ. [صفحه ۹۹] - لنا العزى و لا عزى لكم. - اللّه مولانا و لا مولى لكم. - يا محمد حنظلة بحنظلة و يوم بيوم بدر و الحرب سجال. أمر النبى علياً أن يستطلع قوات قريش فقد تجتاح المدينة: - انظر فإن جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فانهم يريدون مكّة.. و ان ركبوا الخيل فانّهم يريدون المدينة.. وأردف النبى و قد برق العزم فى عينيه: - والذى نفسى بيده لئن أرادوا المدينة لأُناجزنّهم. جراح النبى تنزف.. تفور.. لا تعرف التوقّف. بالجراح الأنبياء حمراء حمراء بلون الشفق، تبشّر بالنهار.. بشمس ساطعة ودفء الربيع. [صفحه ۱۰۱]

القسمت ۱۸

كـذئاب مجنونـة راح المشـركون يجوسون خلال الجثث الهامـدة يمزقون اكباداً و قلوباً كانت تنبض بالحياة؛ تحلم بعالم جميل؛ بـدنيا آمنة مطمئنة. جثمت «هند» على جسد حمزة كنسر متوحّش وبدا وجهها الحاد كغراب شره.. كان صوتها يشبه فحيح الأفاعى: - حمزة.. صياد الأُسود... جثة هامـدة.. انهض يا قاتل أبى و أخى: اسـتلت هنـد خنجراً و بقرت بطن أسـد اللّه و أسـد رسوله ثم انشبت يدها فى بطنه. كـانت المخـاطب تبحث عن كبـد حرى و لمـا عثرت عليها انتزعتها.. و حمزة ما يزال نائماً يعلو وجهه غبار خفيف. مزّقت الـذئبة كبـد الإنسان. تريـد أن تلوكه.. أن تبتلعه. و على تلال قريبـة كانت نسوة فى المدينـة يرقبن المعركة، و قد [صـفحه ۱۰۲] غاظهن فرار المسلمين، صرخت «اُم‌أيمن» وهى تحثو التراب فى وجه «عثمان»: - هاك المغزل فاغزل به وهلم سيفك. أراد عثمان أن يخبرها بمقتل النبى و انه سـمع أحـدهم يهتف وسـط المعركـة: قتلتُ محمـداً؛ ولكنه فضـل الصـمت فأمّ أيمن إمرأة فى رجل. سوف تحثو فى وجهه الـتراب مرة اُخرى. لـوى عثمـان عنـان فرسه وانطلـق صـوب جبـل «الجلعب» فى ناحيـة يـثرب وتبعه المنهزمون فهو خـبير فى اكتشـاف المخابئ و قـد يجتاح أبوسـفيان المدينـة. عاد النبى إلى المدينة ينوء بجراحاته، واخفق على و هو يغسل جراحه أن يوقف نزف الدماء؛ وكادت «فاطمـة» أن تموت و هى ترى أباها و الـدماء تسـيل من وجهه.. تـدفقت الـدموع غزيرة كسـماء ممطرة واستيقظت فى أعماقها كوامن الأـمّ تحاول انقاذ وليـدها بأىّ شـىء؛ عمـدت إلى حصير فاحرقته، ولما صار رماداً لمت الرماد وراحت ترش جراح النبى. نجح الرمـاد فى وقف اشـتعال النـار، أطفأ الجراح بعـد أن أخفق الماء. كان علىّ يراقب زوجه تضـمد الجراح.. تمسـها ببلسم يوقف تـدفق [صفحه ۱۰۳] الألم. تأملت فاطمـة سـيف أبيها وسـيف بعلها و قـد جللتهما الدماء وأدركت هول الملحمة التى دارت فى جبل اُحد. قال على و هو يناولها سـيفه: - خذيه فلقد صدقنى اليوم. فقال النبى: - لقد أدى بعلك ما عليه و قتل اللّه بسـيفه صـناديد قريش حتى نادى جبريل بين السـماء و الأرض: لاسـيف إلّا ذوالفقار و لا فتى إلا على. نظرت فاطمة إلى زوجها تشكره بعينين تشعان رحمة... اللّه وحده يعرف الأعماق... وحـده الـذى يعرف روح هـذا الفتى الشـجاع الـذى حمل روحه على كفه يفـدى رسول‌اللّه و قـد غدا كل شـىء فى دنياه، انه لا يعرف للحياة معنى إلا بمحمـد... محمـد الـذى منحه فى زمن الرعب الطمأنينـة والسـلام. عاد عثمان و من معه إلى المدينة بعـد أن مكث فى الجبـل ثلاثـة أيـام... و قال النبى عنـدما وقعت عيناه عليهم: - لقـد ذهبتم فيها عريضـة!! و تمرّ الأيام و تنـدمل آلاف الجراح و عـادت إلى المدينـة روح [صـفحه ۱۰۴] الأمـل... وانطلق المجتمع الجديـد يزرع و يبنى و يعمـل و يشـحذ السـيوف... و قد أدرك الـذين آمنوا ان طاعة اللّه و الرسول هى الطريق الى النصـر... إلى المجد و إلى جنة عرضـها السـماوات و الأرض. عادت فاطمة تدير الرحى و تهز المهد و تدير منزلها الصـغير و تضـمد جراح النبى.. تعرف مواقعها فى روحه العميقة؛ و ربما انطلقت إلى اُحد تبكى حمزة سـيد الشـهداء.. تعرف عمق الجرح الـذى أحـدثه رحيله فى قلب أبيها. و أطلل عام جديـد يحمل معه أفراح النصر و يقـدم إلى رسـول‌اللّه ريحانـة اُخرى فى حنايـا فاطمـة؛ فلقـد ولـد الحسين وجيهـاً فى الـدنيا و فى الآـخرة و من المقربين. وهمس النـبى فى اُذنيه بكلمات السـماء و سـمعه الكثير و هو يقبله قائلاً: - حسـين منى و أنا من حسـين. و كان الحسـين قريباً فدبّ كنملة و راح يداعب شعر أخيه و قد غمره فرح طفولى، و تدفق نبعٌ جديد؛ نبع فى اُسـرة صـغيرة؛ اُسـرة أسسـها النبى و باركتها السماء. و تمر الأيام و النبى يشمر عن ساعديه و يبنى الإنسان... انسان الصـحراء.. يروض فى أعماقه الوحش و يضىء فى ظلماته شمعة. [صفحه ۱۰۵] و بدت يثرب فى أرض اللّه الواسـعة سـراجاً فى مهب إعصار فيه نار أو قارباً صغيراً وسط الأمواج العاتية، و النبى و الذين آمنوا يقاومون المد الجاهلى و يحبطـون مـؤامرات يهوديـة... و اليهود عجنوا بالغـدر و تشـربوا تعـاليم التلمود... نبـذوا التوراة بعيـداً الّا مـا حرّفوه عن مواضـعه، يبنون حصونهم و قلاـعهم، وظنوا انهم مـانعتهم حصونهم. يخفون وراءهـا حقـداً دفينـاً للإنسـان تنـاقلته أجيـالهم منـذ السبى البابلى و إلى ان يقضـى اللّه أمراً كان مفعولا. يباهون الاُمم بموسـى بن عمران و قـد عشـعش قارون فى نفوسـهم. ترن فى أعماقهم خشـخشة الذهب و الفضـة، فتوارثوا عجلاً ـ صـنعوه منـذُ أن سوّل لهم السـامرىّ، وظلوا عـاكفين عليه حتى اذا نصـحهم هـارون كـادوا ان يفتكوا به، أداروا ظهرهم للـذى أنجـاهم من البحر و عكفوا على عجـل له خوار. كـان موسـى غاضـباً و هو يلقى الأـلواح.. و يأخـذ بمخـانق أخيه. هتف

هـارون: - انهم استضـعفونى و كـادوا يقتلوننى. واتجهت الأبصـار إلى السـامرى. كاد موسـى يبطش به: - فما خطبك يا سامرى؟ - لا شيء.. لقد رأيت أثر الملاك.. وكذلك سولت لى نفسـى. و مضـى السامرى فى التيه... يشد عباءته إلى كتفيه يعتصـر وجهه [صفحه ۱۰۶] المخـادع بكفيه... وعواء ذئب جـائع يضـج فى صـدره اللاهث.. ضاع السامرى بين آثار الجمال و الحمير لايعرف له وطناً سوى تلك البقعة التى خسـفت بقارون و خزائنة الزاخرة بالذهب الأصـفر.. فى أعماقه أُمنيات لعجل جديد يعبده من دون اللَّه؛ لا تكفيه بقعة واحـدة. يريـد أن يبتلع سـيناء و أرض كنعـان، و بابل و رمال جزيرة العرب. وحط السامرى رحلـة هنا و هناك من أرض الجزيرة وراح يبنى الحصون والقلاـع و ينهب الـذهب، القبائل العربيـة تعبـد أصـناماً من حجارة تنحتها بأيـديها أو أشـجاراً ذات رقاع، وابناء السامرى يعبـدون عجلًا من ذهب يخطف الأبصار، يظلون عليه عاكفين حتى جاه محمـد. توقف التاريخ يحبس أنفاسه عند حصون بنى النضـير فقد جاء محمد ومعه جمع من أصـحابه يطالبهم بالوفاء وهم جبلوا على الغدر؛ يبتسمون لمن يدعوهم فيكشرون عن أنياب تنزّ صديداً. قـالوا وقـد رأوا النبى عنـد الحصن فى قلـة ودونمـا سـلاح. - نعم يا أباالقاسم نعينك على ما أحببت. وجلس النبى ينتظر الوفاء. وخلف جـدران الحصون والقلاع ولدت مؤامرة. اجتمع ابناء السامرى... العيون تبرق بالغدر: [صـفحه ۱۰۷] - هذه فرصتنا للقضاء على محمد. - أجـل نتغـدى به قبـل أن يتعشـى بنا. - انطلق يا «عزوك» فتحـدث معه و أطل الكلام. - و أنت يا «جحاش» اصـعد فوق الحصن والق عليه (رحى الطـاحون). حـاكت العنـاكب شـباكها على عجـل. غير أنّ النبىّ الأمى الـذى يجـدون اسـمه فى التوراة يعرف ما يجول فى خواطرهم فغادر الحصن وجاء المدينة يسعى. و حوصرت حصون السامرى عشرين يوماً حتى تهاوت جميعاً وقتل على «عزوك» ولملم بنو النضـير شـباك العنكبوت و رحلوا... رحلوا بعيـدا و تنفس النبى والذين آمنوا الصـعداء؛ وتمت كلمة ربك بالحق و قيل بعداً للقوم الظالمين. وعادت يثرب مدينة منورة يكاد سنا نورها يضيء التاريخ. [صفحه ۱۰۹]

القسمت ۱۹

الحياة فى يثرب ينابيع متدفقة، و الأمل ينمو.. يكبر.. غدا شـجرة خضـراء أصـلها ثابت و فرعها فى السـماء، والذين نصروا النبى يعملون دائبين فى زروعهم، يرعون ماشـيتهم. والـذين هاجروا وجـدوا لهم متسـعاً من مكان فى الأرض و فى القلوب و غـدا الجميع أُخوة على دين واحد كلهم من آدم و آدم من تراب، والرسول لا يفتأ يؤلّف بين القلوب.. يغسل عنها أدران الجاهلية. على يعمل.. يسقى الزرع أو يفجر الأرض ينابيع، فيحصل لقاء ذلك صاعاً من شـعير أو تميرات من نخيل يثرب. كانت شـمس الأصـيل تغمر مسـجد النبى بأشـعتها الذهبية، ومساقط الضوء تتناثر من بين جريد النخل كدنانير ذهب نثرت فوق عروس. جلس النبى فى قبلته بعد ان انفتل من الصلاة و قد تحلّق حوله [صفحه ۱۱۰] أصـحابه فبـدا كقمر وسط النجوم، والزمن نهر يتدفق... تتدافع قطراته بانتظام...أو رحى كبيرة تدور و تدور، تهب السنين لمن يشاء و من لا يشاء. تفتح عيون الأطفال و تغمض عيوناً متغضنة الأجفان، تشدّ أعواد الشباب و تقوس قامات الكهول، فـالجميع إلى زوال و يبقى وجه اللَّه... اللَّه وحـده. دخل المسـجد شـيخ عصف به الزمان. نحت وجهه و مزق ثيابه، يـدب على الأرض دبيب نملة تبحث عن رزقها فى يوم بارد. هتف الشـيخ و هو يتطلع إلى النبى كأنما يتطلّع إلى شـمس تهب النور والدفء: - يا نبى اللَّه أنا جائع.. عريان.. اشـبعنى واكسـنى. أجاب النبى و قلبه يذوب تأثراً: - ما أجدُ لك شـيئاً.. ولكن الدالّ على الخير كفاعله... انطلق إلى من يحب اللَّه و رسوله، و يحبه اللَّه و رسوله، يؤثر اللَّه على نفسه.. انطلق إلى فاطمـة.. التفت النبى إلى بلاـل: - قم يا بلال.. فخـذه إلى منزل فاطمة. وقف الشـيخ على باب يغضـى إلى عالم من أمل.. عالم يهب الخير للجياع. [صفحه ۱۱۱] هتف الشيخ بصوت واهن ينوء بعبء السـنين: - شـيخ عصف به الـدهر و أضـر به الفقر.. واسـينى يا بنت محمد. نظرت فاطمة حواليها.. لم تجد شـيئاً تسـعف به انساناً ينتظر بأمل. كان هناك فى زاويـة الحجرة جلـد كبش مدبوغ، فطوته و ناولته الشـيخ: - خذه، فعسـى اللَّه أن يختار لك ما هو خيرٌ منه. دقّق الشـيخ النظر و تمتم: - و ما أصـنع بجلـد كبش يا بنت محمد! وأصـعب شـيء أن تهب المرأة زينتها... اساور من ذهب أو فضّة أو عقداً من لآلئ البحر، ولكن هناك ما يضيء فى نفس المرأة و يتألق فى أعماقها تألق اللؤلؤ فى الأصداف. انتزعت فاطمة عقداً كان فى

عنقها و ناولته الشيخ الملهوف: - خذه يا شيخ.. عسى اللَّه أن يعوضك به ما هو خيرٌ منه. عاد الشيخ الهوينى إلى المسجد... كان النبى ما يزال جالساً بين أصحابه، قال الشيخ: - يا رسول‌اللَّه أعطتنى فاطمهٔ هذا العقد و قالت بعه عسى اللَّه أن يصنع لكَ به خيرا. دمعت عينا النبى: [صفحه ۱۱۲] - كيف لا ـ يصنع اللَّه لـكَ! و قـد اعطتك ايّاه سيدهٔ بنات آدم. سأل عمار و كان حاضراً: - بكم تبيع العقـد يا شيخ؟ - بشبعهٔ من الخبز و اللحم، و بردهٔ يمانيهٔ استر بها نفسى و اُصلى بها لربى. ملأ الشيخ كفيه دنانير من ذهب و دراهم من فضهٔ فهتف جذلاً: - ما أسخاك بالمال يا رجل! غاب الشيخ برهـهٔ ثم عاد و بريق أمل يشع من عينيه، و كلمات الدعاء و تمتمات الثناء تنساب من بين شفتيه فقد أغناه اللَّه بعد فقر و أشبعه بعد جوع و كساه بعد عرى. انطلق عمار إلى منزله.. فسكب عطراً غالياً على العقد ثم لفه ببرده يمانيه و قال لفتاه و كان اسمه سهم: - انطلق إلى فاطمهٔ و سلمها العقد و أنت لها. و انطلق سهم كسهم يجتاز البيوت حتى اذا وقف على باب فاطمهٔ: - السلام عليكِ يا بنت رسول‌اللَّه... العقـد وأنا لكِ يا بنت محمـد. - العقـد لى و أنت حرٌّ لوجه اللَّه. كاد الفتى يطير فرحاً.. كان يفكّر بالحريّهٔ.. يحلم بها.. وهاهى [صفحه ۱۱۳] اللحظهٔ التى كاد أن ينساها تتحقق فيدخل الدنيا حرّاً طليقاً.. انه لن ينسى أبداً فاطمهٔ... السيدهٔ التى أعادت اليه شيئاً غالياً فقده منذُ زمن. عاد مهرولاً و الفرحهٔ تطفو فوق وجهه جبينه مشرق وفمه كهلال عيد الفطر. وجد نفسه يعود إلى عمار، هتف عمار: - ما يضحككَ يا سهم؟ - أضحكَ لبركه هذا العقد... اشبع جائعاً و كسى عرياناً وأغنى فقيراً واعتق عبداً ثم عاد إلى صاحبه. و عندما أوت الطيور إلى أعشاشها... و عاد المزارعون إلى بيوتهم وساق الرعاهٔ غنيماتهم... فى طريق العودهٔ و قد غابت الشمس... لتتألّق النجوم فى صفحهٔ السماء و يشرق القمر... كانت حكايات السمر تتحدث بقصهٔ عقدٍ مباركٍ وهبته بنت محمد ثم عاد اليها بعد أن مست بركته جياعاً و عراهٔ و عبيداً... و هبتهم الخبز و الكساء و الحريّهٔ. [صفحه ۱۱۵]

القسمت ۲۰

مضت خمسهٔ أعوام على هجرهٔ النبى... والمدينهٔ ما تزال تنعم ببركات السماء.. تبنى و تزرع و تنتج و تقدم إلى العالم الكلمهٔ الطيبهٔ ولكن قريشاً واليهود يفكرون باجتثاث شجرهٔ غرستها السماء ليعود الناس القهقرى إلى زمان لا عودهٔ اليه.. دخل فصل الشتاء.. و رياح باردهٔ تهب من ناحيهٔ الشمال، الغيوم تتجمع فى السماء.. ثم سرعان ما تتبدد.. تاركهٔ الأرض عطشى و الزروع أيدى متضرعهٔ تنشد المطر، العواصف تشتد يوماً بعد آخر و لا قطرهٔ مطر... وهناك رياح اُخرى.. رياح جاهليهٔ تهب من ناحيهٔ الجنوب.. قريش تعد العدهٔ لغزو المدينهٔ.. و السامرى الذى حطّ رحلهٔ فى خيبر يخطط لإطفاء النور فى جزيرهٔ العرب. اشتعلت فى القبائل حمى السلب و النهب... و يثرب لقمهٔ دسمهٔ.. و كذلكَ سول لهم السامرىّ.. دقّت طبول الحرب بين مضارب القبائل و سيوف الغدر تشحذ، تومض فى بطون نجد وكنانهٔ و قريش تطرب على رقصهٔ الحرب و هند تلوكَ كبد حمزهٔ، و أبوسفيان يحلم بالمجد.. يهتف: اعل هبل. رياح الشتاء ما تزال تعصف بالمدينهٔ و الغيوم تعبر السماء كسفن تائههٔ، حل شهر رمضان، القى رحله فى الجزيرهٔ غريباً لا يعرفه أحد إلّا فى أرض طيبهٔ.. صامت يثرب للَّه.. امتنع أهلها عن الأكل و الشرب.. وصامت جوارحهم... و المعدهٔ توقفت عن الانبساط و التقلّص.. فانتفض القلب يخفق بقوّهٔ.. واستيقظ العقل من سباته متوتراً.. يرى ما لا تراه العيون.. و يدرك ما لا تدركه الأبصار... جاء رمضان يعلّم الإنسان كيف يجوع فينتصر. كيف يظمأ لتولد إرادته.. كيف يهزم الوحش القابع فى داخله لينتصر الإنسان المضطهد فى الأعماق.. رمضان نهرٌ يجرى.. تتدافع أمواجه برفق. يغسل القلوب من الدرن.. يعيدها بيضاء بيضاء كحمائم بريّهٔ تطير فى الفضاء.. خفيفهٔ حرّهٔ تسبح فى ملكوت اللَّه. الرياح الباردهٔ ما تزال تهب من ناحيهٔ الشمال... و الغيوم ما تزال تفرّ مذعورهٔ باتجاه الجنوب... و لا قطرهٔ مطر والعام عام جفاف... والرسول يشد على بطنه حجر المجاعهٔ، و يصغى إلى انباء تأتى من [صفحه ۱۱۷] ناحيهٔ الصحراء - انهم عشرهٔ آلاف مقاتل.. قبائل غطفان و قريش و كنانهٔ.. و قد نقض «بنوقريظهٔ» العهد و هم داخل المدينهٔ.. ألف خنجر فى خاصرهٔ يثرب. - و هناكَ أعداء موجودون بيننا لا نعلمهم. اللَّه يعلمهم. - كفانا اللَّه شرّ المنافقين. - يثرب فى خطر. - انهم يزحفون باتجاه المدينهٔ من فوقنا و من أسفل

منّا. – لا- تنسوا اللّه فینساکم.. و اذکروه یـذکرکم و یثبّت أقـدامکم. وفی المسـجد کاد الیأس یعصف بالقلوب المؤمنـة والقلق یزعزع شجرة غرسـها النبی لتؤتی اُکلها کل حین بإذن ربِّها. وبعد حیرة و وجوم نهض رجل من أهل فارس.. یلوح بطوق نجاة لیثرب فالطوفان قـادم: – یـا رسول‌اللّه إنـا کنـا بـأرض فـارس اذا خفنـا العـدو خنـدقنا. فکرة لم تکن العرب لتعرفها. هتف الأنصار: – سـلمان منا. وردّد المهاجرون: – سلمان منّا. [صفحه ۱۱۸] و تنازع الفریقان رجلاً جاب الأرض بحثاً عن رجل یـدعی محمـد. هتف النبیّ و قد رنت الیه العیون: – سـلمان منّا أهل البیت. ریاح الشـتاء تعصف بعنف... و العام جفاف و البطون خاویة.. ولکن الإرادة التی ایقظها رمضان تکاد تلوی التاریـخ... من الشـمال سـتهب عاصـفة الأـحزاب. ضـرب النبی الأـرض بمعول من حدیـد و ببـأس شدیـد؛ وهوت المعاول تفتت الأـرض علی طول خمسـة آلاـف ذراع و عرض تسـعه أذرع و عمق سـبعة أذرع. ومرت الأیام و الریاح ما تزال تهبّ شدیـدة البرودة و الأجساد تذوی لاتجد ما یسدّ رمقها.. ولکن الإرادة کانت تشتدّ.. تفتت الصـخور و تغوص فی أعماق الأرض، فأسراب الجراد قادمة.. تریـد أن تحیل کل ما هو أخضـر إلی یباب لاشـیء فیه إلّا سـراب یحسـبه الظمآن ماء. جلس النبی لیستریـح قلیلاً... جفف حبات عرق کانت تتألّق فوق جبینه وبـدا معوله قطعـة نادرة أو کنزاً منحته الأرض... شـدّ حجر المجاعة إلی بطنه أکثر.. ثلاثة أیام تمر و هو لا یجد شیئاً یطعمه. لم یـذکره أحـد.. الجوع و البرد و الاعیاء هواجس الصـحراء تنسـی المرء أقرب الأشـیاء الیه ولکن فاطمـة لم تنس الرجل الذی [صفحه ۱۱۹] اختارته السماء رسولاً إلی الأرض المنکوبة. الرجل الذی اکتسبت یثرب مجدها به جائع.. یشد حجر المجاعة إلی بطنه لایجـد شیئاً یـأکله حتی ذکرته فاطمـة علی حین غفلـة من أهـل یثرب. غابت الشـمس، وفاحت رائحـة الخبز فی فضاء المدینـة و توهجت المواقـد فی البیوت تمنـح الصـائمین الـدفء و الشـبع.. و النبی فی خنـدقه یصـلّی للّه: – ربِّ انی لما أنزلت إلیَّ من خیرٍ فقیر. وجاءت فاطمة من بعید تحمل الیه قلبها و خبزاً انضـجته قبل قلیل. شاعت البهجة فی وجه النبیّ.. بهجة تشـبه بهجة الحواریین یوم نزلت الیهم مائـدة من السـماء. و فاطمـة حوراء أنسـیة جـاءت تحمـل له الخبز والـدفء والشـبع. تمتم النبی: – واللّه ما دخل جوفی طعام من ثلاث. عادت فاطمة إلی منزلها... تکفکف دموعها.. تبکی الرجل الذی حمل مشـعل السـماء إلی الأرض یرید له أن یبقی مضیئاً بوجه العاصفة القادمة. [صفحه ۱۲۱]

القسمت ۲۱

انطوت لیالی رمضان وابتسم هلال شوال یحمل للقلوب فرحة عید الفطر... وامتزجت فرحة العید بفرحة اُخری. لقد أتم الرسول والذین آمنوا حفر خندق امتد خمسة آلاف ذراع وعرض تسـعة أذرع و عمق سـبعة أذرع. تجمع بعضـهم فوق التلال المشـرفة وراحوا ینظرون إلی عمل انجزته الإرادة.. إرادة الإنسان الـذی اضاءت نفسه شـعلة سـماویة. – أیّـة قوة أنجزت هذا العمل العظیم؟ – انها قوة الإیمان یا أخی. – أجـل.. المؤمن أقوی من الجبـل. ابتسم هلاـل شوال یعلن نهایـة رحلـة الجوع والظمـأ... وعـاد المؤمنون یحملون معاولهم و قد نفضوا تراب یومٍ حافلٍ بالعمل. عسـکرت جیوش مکّة فی «مجمع الاسیال» بین «الجرف» [صفحه ۱۲۲] و «زغابة».. و عسکرت غطفان ب«ذنب نقمی» فی الجهـة الغربیـة من جبل اُحد... و کان حیّ بن أخطب من سـلالة السامریّ یکید من أجل احتلال یثرب و قتل النبی الأمی الذی یجده مکتوباً فی التوراة... فی أعماقه یتردد خوار عجل.. عجل عبدوه من دون اللّه. تحطمت أحلام أبی‌سـفیان أمام خندق لم یکن لیخطر علی بـاله یومـاً. تمتم حانقـاً و هو یهمز فرسه بالسوط. – مکیـدة لا تعرفها العرب. – انها من تـدبیر ذلک الفارسـی. – لا یمکن اقتحام الخندق أبداً. – لیس أمامنا سوی ضرب الحصار. حل المساء.. و ریاح الشتاء تهب من ناحیة الشمال.. ریاح تخترق الجلد و تصلّ فی العظم.. جلس أبوسـفیان قبالة النار المشـتعلة والریح تعبث بأطراف الخیمة و کانت ظلاله تتراقص فوق وبر الخیمة کشـیطان مریـد.. تمتم عکرمـة و هو یحاول کسـر الصـمت الجاثم: – انهم بعیـدون عن مرمی النبال. أجاب أبوسـفیان و هو یحدق فی المجمر: [صفحه ۱۲۳] – ابحثوا عن ثغرة لاقتحام الخنـدق فإطالـة أمـد الحصار لیس فی صالحنا. علق عمرو بن العاص: – أنا لا أثق بقریظـة انهم یطلقون أقوالهم جزافاً، و إلّا فأین أفعالهم... ألف مقاتل فی خاصـرة یثرب.. و هم ما یزالون یختبئون خلف حصونهم. قال عکرمة یائساً:

– و لا تنس قبائل غطفان.. انهم يلوحون بالصلح مع محمد مقابل حفنة من التمر. صرخ أبوسفيان هائجاً: – و هل جاءوا إلّا من أجل ذلك... سكت هنيهة و أردف و قد التمعت عيناه ببريق مخيف: – غداً سأحسم الأمر. اطلّ الصباح بارداً برود الموتى، و قد بلغت القلوب الحناجر... كان «العامرى» يجول بفرسه فى «السبخة» بين الخندق و جبل «مسلع».. لقد تمكّن مع قوّة من فرسانه من اقتحام الخندق. أمر النبى مفرزة من قواته بقطع طريق العودة. صرخ الفارس المعلَّم بكبرياء: – هل من مبارز.. [صفحه ۱۲۴] وخيم صمت رهيب و كانت القلوب الخائفة تدق بعنف كطبول الحرب. – هل من مبارز.. ألا من مشتاق إلى جنته؟! وقهقه فرسان كانوا ينظرون اليه باعجاب و نهض علىّ للمرة الثالثة يطلب المواجهة فأذن له الرسول.. و تقدّم فتى الإسلام. رفع النبى يديه إلى السماء.. إلى عالم لا نهائى: – اللّهم انّك أخذت منى عبيدة يوم بدر و حمزة يوم اُحد و هذا علىّ أخى و ابن عمّى فلا تذرنى فرداً و أنت خير الوارثين. ثم تمتم و هو يشيّع علياً بنظراته: – برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه. وتقابل فارس و راجل؛ مشرك و مؤمن. – من أنت؟ – على بن أبى‌طالب. – ليبرز إلىَّ غيرك.. انى أكره أن اقتُلك.. لقد كان أبوك صديقاً لى. – لكنى أحبُّ أن اقتلك. قال «ابن ودّ» وقد لاحت له طيوف من بدر يوم التقى الجمعان: – أكره أن أقتل رجلاً كريماً مثلك.. ارجع خيرٌ لك. أجاب علىّ بعزم: [صفحه ۱۲۵] – ان قريشاً تتحدّث عنك انّك تقول: لا يدعونى أحد إلى ثلاث خلال إلّا أخذت واحدة منها. – أجل. – فإنى أدعوك إلى الإسلام. – دع عنك هذه وهات لى غيرها. – ادعوك إلى أن ترجع بمن تبعك من قريش إلى مكة. – اذن تتحدث عنى نساء مكة ان غلاماً خدعنى. – أدعوك إلى القتال راجلاً. اشتعل غضب متأجج فى عينيه، واقتحم عن فرسه... واحتدم الصراع بين سيفين؛ سيف الإسلام و سيف الجاهلية... الإيمان و الكفر... الغضب السماوى و الحمية.. حمية الجاهلية... و كان الرسول يدعو: – اللهم لاتذرنى فرداً و أنت خير الوارثين. وهوى سيف كصاعقة غاضبة... ليسقط رجل اقتحم الخندق على حين غفلة... وعاد على وبشائر نصر عظيم تموج فوق وجهه. هتف عمر مدهوشاً: – هلا سلبته درعه فانه ليس فى العرب درعٌ مثلها. أجاب على وقد أطلّ الإنسان من عينيه: [صفحه ۱۲۶] – استحييت أن أكشف سوأته. وفى حصن «فارع» كان حسّان مع النسوة و الأطفال.. و قد بلغت القلوب الحناجر. كانت رائحة الغدر تتصاعد من حصون بنى‌قريظة. جلست فاطمة قرب صفية تراقبان شوارع المدينة. فجأة، لاح الخطر... عينان يهوديتان تتلصصان ورائحةُ الغدر تزكم الانوف. هتف صفية: – يا حسان هذا يهودى يطوف حول الحصن كما ترى فانزل اليه واقتله.. والّا دلّ علينا. أجاب حسان وهو يبلع ريقه: – غفر اللّه لكِ يا ابنة عبدالمطلب نهضت صفية و قد أخلد حسان إلى الأرض. شدت وسطها. كانت فاطمة تراقب ملامح لحمزة فى وجهها فى عزمها و الإيمان الذى غمر قلبها. هبطت صفية درجات الحصن وفى قبضتها عمود. ودوّت ضربة هاشمية على رأس «السامرىّ».. و شخصت العينان و بريق الغدر يخبو شيئاً فشيئاً... هتفت صفية: – يا حسان انزل اليه و اسلبه. تشبث حسان بالأرض، وقد ذعر الجرذ القابع فى أعماقه. [صفحه ۱۲۷]

القسمت ۲۲

الخيول تدك بسنابكها الأرض على طول الخندق و قد مضت اسابيع ثلاثة... كان مع النبى ثلاثة آلاف.. ولكن ثلاثة أسابيع من الخوف و الرعب كافية لامتحان إرادة الإنسان... فى المساء و عندما يخيم الظلام تنسل أطياف كالاشباح.. و قد ابتلى المؤمنون و زلزلوا زلزالاً شديداً.. و رفع «ابن قشير»– و كان رجلاً ذا وجهين– عقيرته: – محمّد يعدنا كنوز كسرى و قيصر.. وأحدنا اليوم لايأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. مضت أسابيع أربعة.. ولا شىء سوى مناوشات بالسهام.. والرياح ما تزال تعصف بشدّة.. تمزّق الخيام و تقلب القدور و تطفى النار.. و لم يبق مع النبى إلا تسعمئة من الذين امتحن اللّه قلوبهم بالتقوى. و فى ليلة سوداء كسواد الكحل مدّ الرسول كفيه إلى السماء ينشد [صفحه ۱۲۸] نصر اللّه: – اللّهم منزل الكتاب، سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم و انصرنا عليم و زلزلهم اللهم ادفع عنّا شرّهم، وانصرنا عليهم، واغلبهم لا يغلبهم غيرك. أضاءت نجمة فى السماء.. و قد غضبت الريح فراحت تعدو مجنونة بين القبائل. قال النبى و قد استدعى «حذيفة»: – اذهب فادخل فى القوم فانظر ماذا يفعلون و لا تحدثن شيئاً حتى تأتينى.

وانطلق «حذیفة» عبر الخندق و تسلل بین خیام مزّقتها ریاح الشتاء.. کان الظلام دامساً وراح یتلمس طریقه إلی خیمة أبی‌سفیان حیث تحاک خیوط العناکب. دس حذیفة نفسه فی زاویة مظلمة و أخذ مکاناً بین رجلین کانا یحدقان بأبی‌سفیان. قال صخر بن حرب متوجساً: - یا معشر قریش لیتعرف کل امرئ جلیسه واحذروا الجواسیس والعیون. هتف حذیفة وهو یشدّ علی ید جلیسه: - مَن أنتَ؟ [صفحه ۱۲۹] - معاویة بن أبی‌سفیان. - وأنت؟ - عمرو بن العاص. خفتت الأصوات و قد بدا حذیفة کأحدهم. قال أبوسفیان: - یا معشر قریش انکم ما أصبحتم بدار مقام لقد هلک الکراع والخف... واخلفتنا بنوقریظة العهد ولقینا من شدّة الریح ما ترون.. ما تطمئن لنا قدر و لا تقوم لنا نار و لا یستمسک لنا بناء فارتحلوا فانی مرتحل. انفجرت السماء بالصواعق.. وهطلت الأمطار غزیرة.. وهبت الریاح شدیدة.. تجتثّ الخیام و تبثّ الرعب فی القلوب... فکر «طلحة بن خویلد» أو لعلّه رای أشباحاً تعبر الخندق فهتف مذعوراً: - انّ محمداً قد عبر الیکم باصحابه... فالنجاة النجاة. تمزقت جیوش الأحزاب؛ مزقتها الریاح و جنود لم یروها حتی اذا أطلّ الصباح کان کلّ شیء هادئاً فی الجانب الآخر من الخندق. وأرسل النبیّ «حذیفة» مستطلعاً فاذا کل شیء یشیر إلی هزیمة ساحقة.. الخیام الممزقة متناثرة هنا و هناک.. و أکوام التبن.. ومواقد منطفئة و قدور منکفئة.. والرماد یغطی الأرض الموحلة، وعاد [صفحه ۱۳۰] «حذیفة» یحمل البشری. وأصدر النبی أمره بالعودة إلی المنازل بعد ثلاثین یوماً من الحصار و الخوف و القلق. و کان بنوقریظة منکمشین فی حصونهم یترقبون بخوف المصیر الذی ینتظرهم... فالغدر یعقبه انتقام. هاهی الأفاعی تلوذ بجحورها و تمدّ ألسنتها متوجسة.. هتف الرسول؛ وقد حانت لحظة الاقتصاص: - مَن کان سامعاً مطیعاً فلا یصلّین العصر إلّا فی بنی‌قریظة. هزّ النبیّ اللواء ودفعه إلی علیّ: - کُن فی مقدمة الجیش واسبقنا إلی بنی‌قریظة. وانطلق علیّ واللواء یخفق فوق رأسه حتی اذا دنا من الحصن رکزه فی الأرض بقوة وأیقن الذین مسخوا قردة و خنازیر انها الحرب ولا شیء سواها. وسمع علیّ شتائم تنهال علی النبی الأمّی فهتف بغضب: - السیف بیننا و بینکم. و استمر الحصار عشرین یوماً... و المناوشات بالسهام و النبال مستمرة.. والشتائم تنهال من فوق جدران الحصون فهتف النبیّ: - یا اخوان القردة!.. هل أخزاکم اللّه و أنزل فیکم نقمته. [صفحه ۱۳۱] وشن علی أول هجوم عنیف، فارتفعت رایة بیضاء فوق الحصون.. و کان الاستسلام دون قید أو شرط. وهتف سعد وقد رضی الجمیع حکمه: - آن لسعد أن لا تأخذه فی اللّه لومة لائم. کان سعد یعرف «توراتهم» حیث حرّفوا الکلم عن مواضعه لیسوموا البشر الموت و الفناء... کان یدری ما فی الاصحاح من التثنیة من ریح صفراء لا تبقی و لا تذر «حین تقترب من مدینة لکی تحاربها استدعها إلی الصلح فان أجابتک الی الصلح وفتحت لک فکل الشعب الموجود فیها یکون لک للتسخیر و یستعبد لک و ان لم تسالمک بل عملت معک حرباً فحاصرها واذا دفعها الربّ الهک إلی یدک فاضرب جمیع ذکورها بحدّ السیف، و اما النساء والأطفال و البهائم و کلّ ما فی المدینة غنیمة تفتحها لنفسک و تأکل غنیمة اعدائک التی أعطاک الرب الهلک». و أذاقهم سعد حکم التوراة و کانوا أذاقوها الأمم. وهکذا تساقطت رووس الخیانة و الغدر.. و سقط رأس حی بن أخطب مخطط فکرة الغزو والفناء وفر السامریّ إلی «خیبر» لا یفتأ یعبد العجل من دون اللّه. [صفحه ۱۳۳]

القسمت ۲۳

عاد السلام یرفرف فوق المدینة و کلمات السماء تتردد بین سعف النخیل وعروش الأعناب. وعاد علیّ یعمل فی الأرض... یسقی الزرع و یفجر الینابیع یرید للأرض أن ترتدی حلّة خضراء... عاد الأطفال یلعبون فی الأزقة... ضحکاتهم البریئة تتردد فی الفضاء الأزرق. و مرّ النبی فی طریقه إلی المسجد تحفه کوکبة من أصحابه. و رکض الحسن و الحسین و کانا یلعبان مع الأطفال وخف النبیّ لاستقبال ریحانتیه من الدنیا، و البسمة تطوف فوق وجهه... حمل النبی ولدیه... شم الجنة فیهما... استنشق عبیر الریاحین.. و حملهما علی عاتقه.. والتفت إلی اصحابه: [صفحه ۱۳۴] - من أحب هذین الغلامین واُمهما و أباهما فهو معی فی الجنّة. قال عمر مغتبطاً و هو یری أجمل منظر: - نعم الفرس فرسکما. فأجاب النبی مبتسماً: - و نعم الفارسان هما. شمّ المهاجرون رائحة وطن بعید و تلفتت العیون صوب الجنوب و تلفتت القلوب؛ وطافت صور جمیلة لمکة مرابع الصبا و ذکریات الطفولة فاذا الحنین نهر حزین یجری بصمت و الخریف

فصل الوداع يستثير هواجس العودة واللقاء وهاهى ستة أعوام تنطوى و المهاجرون ما يزالون يقاومون عواصف الصحراء و الزمان... يحلمون بالعودة إلى ديار الحبيب... الكعبة بيت ابراهيم و اسماعيل.. و غار حراء فى جبل النور.. و ذكريات الجهاد. وأطل «ذوالقعدة» يوقظ فى النفوس نداء ابراهيم فتنطلق القوافل بين الأودية.. فالقلوب تهوى إلى بقعة مباركة حيث أول بيت وضع للناس. و عمّت الفرحة المدينة... لقد اعلن النبى رغبته فى أداء العمرة و زيارة البيت العتيق.. و انه لا يريد حربا مع أحد. انّه ينشد السلام.. و هل الإسلام يعنى شيئاً سوى السلام. [صفحه ۱۳۵] وطار النبأ فى الجزيرة رايةً بيضاء بياض حمائم فى الفضاء الأزرق. و اجتمع الف واربعمئة ممن تخفق قلوبهم لمكة واداء شعائر الحج... و تقدّم النبى على ناقته «القصواء» زورقاً ينساب فوق امواج الرمال.. و كان «اللواء» يخفق فوق هامة علىّ.. وساق النبى من الهدى سبعين.. و السيوف فى الأغماد، حتى اذا بلغ ذا الحليفة، أحرم فيها ولبّى. ردّدت الصحارى هتافات التوحيد: - لبيك اللّهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. وفى «عسفان» حطّ النبىّ الرحال.. يمدّ يد السلام.. وجاء رجل من أُم القرى يسعى: - يا رسولاللّه هذه قريش قد سمعت بك، فلبست جلد النمر... وقد اجتمع الرجال و النساء و الأطفال «بذى طوى»... و خيلها الآن فى «كراع الغميم». قال النبى بحزن: - يا ويح قريش.. لقد أكلتهم الحرب. ماذا عليهم لو خلوا بينى و بين العرب.. ما تظنّ قريش.. واللّه لا أزال أجاهد أو تنفرد هذه السالفة. [صفحه ۱۳۶] وكان الرجل يتأمل سوالف النبىّ المتلألئة وقد انفردت عن شعر النبىّ المتموّج تموج الصحارى و هو يكاد يلامس منكبيه. و جلس النبى يفكر.. يفكر فى قوم كذبوه و آذوه.. وألّبوا العرب عليه يريدون أن يطفئوا نور اللّه.. و اللّه متم نوره. قال النبى و قد أحدق به أصحابه: - مَن يدلّنا على طريق غير طريقهم؟ فنهض رجل من أسلم و كان عالماً بخفايا الصحراء وبطون الأودية. وسار ألف و أربعثمة رجل يتقدّمهم آخر الأنبياء و قد هبّت نسائم وطن بعيد. كانت المفازات وعرة كثيرة الحجارة كأنها شظايا بركان انفجر قبل آلاف السنين. حتى اذا وصلوا ارضاً سهلة انعطفوا جهة اليمين حيث الجادة المؤدية إلى «ثنية المراد» مهبط «الحديبية» من أسفل مكة. توقفت القصواء ثم بركت.. و توقّفت الجموع، قال قائل: - حرمت الناقة وأجهدت. فقال النبىّ: لا.. ولكن حبسها الذى حبس الفيل عن مكة.. وأردف و هو ينزل عن «القصواء»: [صفحه ۱۳۷] - و اللّه لا تدعونى قريش إلى خطة تسألنى فيها صلة الرحم إلّا أعطيتهم ايّاها... والتفت إلى الجموع: - انزلوا. قال أحدهم و هو يستعرض الوادى ببصر نافذ: - يا رسولاللّه ما بالوادى ماء. أخرج النبىّ سهماً من كنانته و أشار إلى بئرٍ معطّلة. - اغرزه فى جوفه. كانت هالة من النور تغمر رجلًا ارسلته السماء ليحيى الأرض بعد موتها. انفجرت البئر بالماء نميراً فخشع الذين هاجروا والذين قالوا انّا انصار اللّه. [صفحه ۱۳۹]

القسمت ۲۴

كان الجو مشحوناً بالقلق ما بين «الحديبية» و مكة. قريش لا تذعن للحقّ و لا تصيخ السمع لصوت العقل، فتفتح أبواب مكة لقوافل الحجيج. و بعث النبى «عثمان» فله قرابة بأبى‌سفيان. - اخبر قريش أنّا لم نأت لقتال أحد، وانّما جئنا زوّاراً للبيت، معظمين لحرمته و معنا الهدى ننحره و ننصرف. و مضى عثمان إلى مكة و لم يعد.. مضت ثلاثة أيام.. اختفت فيها أخباره، وسمعوا شائعات عن مصرعه مع عشرة من المهاجرين دفعهم الشوق إلى زيارة أهليهم. عندها وقف النبىّ تحت ظلّ شجرة فى الوادى أسند جذعه إلى جذعها.. وأحدق أصحابه و هم يعاهدون على الموت من أجله... و باركت السماء عهد المؤمنين.. و قد رضى اللّه عنهم. الجو يزداد تأزّماً و لما يعد عثمان بعد... [صفحه ۱۴۰] وجاءت رسل السلام.. وقد أدركت قريش أن الخطر قاب قوسين أو أدنى. جاء «سهيل» يعرض على النبى شروط قريش: - أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين عشر سنين. - أن يردّ محمّد من يأتيه من قريش مسلماً و لا تلتزم قريش بردّ من يأتيها من عند محمّد. - أن يعود محمد و أصحابه هذا العام دون عمرة و أن يأتوا فى العام القادم. - من أراد الدخول فى عهد قريش فله ذلك و من أراد الدخول فى عهد محمّد جاز له ذلك. كان النبىّ يصغى إلى عرض قريش يلقيه «ابن عمرو» وقد بدا بعض الصحابة ممتعضاً وكاد عمر أن ينفجر بعد ان سمع النبى يستدعى علياً: - اكتب يا علىّ: بسم اللّه الرحمن الرحيم. اعترض سهيل: - لا

أعرف هذا.. اكتب باسمك اللّهم. استأنف النبى: - اكتب ذلك واكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول‌اللّه سهيل [صفحه ۱۴۱] بن عمرو. قال سهيل: - لو شهدت انك رسول‌اللّه لم اقاتلك.. ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. أطل الحزن من عينى الرسول: - واللّه انى رسول‌اللّه وان كذبتمونى... اكتب يا على محمد بن عبداللّه وامح رسول‌اللّه. رفع على رأسه وقد شعر بالغضب يتفجر فى صدره. - ان قلبى لا يطاوعنى... و اللّه لا أمحوها. تناول النبى الصحيفة و محاها.. واستأنف على يثبت بنود السلام. و نهض الوفد عائداً إلى مكة... لم يتمالك «عمر» اعصابه فتقدم من النبى بطوله الفارع و عيناه تبرقان بغضبٍ عارم: - ألست نبى اللّه حقّاً؟ أجاب النبى بهدوء: - بلى. - أليس قتلانا فى الجنة و قتلاهم فى النار؟ [صفحه ۱۴۲] - بلى يا عمر. هتف عمر وقد اهتزت دعائم الإيمان فى قلبه: - فَلِمَ نعطى الدنية فى ديننا اذن؟! أجاب النبى و هو يحاول إعادة الطمأنينة إلى قلبه: - انى رسول‌اللّه ولست أعصيه وهو ناصرى. قال عمر بحدة: - أو لست كنت تحدثنا انّا سنأتى البيت فنطوف به؟ أجاب محمد بصبر الأنبياء: - بلى يا عمر... أفأخبرتك انك تأتيه عامك هذا؟ أجاب عمر مخذولاً: - لا. - فانك آتيه و مطوف به. وظلّ «عمر» هائجاً لم تفلح كلمات الرسول فى إعادة السلام إلى نفسه. هرع الرجل الفارع إلى صاحبه وقال بعصبية: - يا أبابكر أليس هو برسول‌اللّه؟ - نعم. - اولسنا بالمسلمين؟ [صفحه ۱۴۳] - أجل يا عمر. - أوليسوا بالمشركين؟ - ماذا تعنى؟ - فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟ نظر أبوبكر إلى صاحبه بأسف و أدرك ان صرح الإيمان يهتزّ فى أعماقه بشدّة، تمتم أبوبكر: - يابن الخطّاب انه رسول‌اللّه ولن يعصى ربّه ولن يضيعه. عمر ما يزال ثائراً يبحث عن شىء.. عن شخص يطفئ به النار التى تستعر فى صدره... و قد حانت اللحظة المناسبة لنسف السلام مع قريش. تمكن «أبوجندل» بن سهيل من الافلات من قبضة قريش، وجاء ينوء بالسلاسل والقيود. كان منظره يدعو إلى الشفقة، اعترضه أبوه و كان قد أمضى عهداً مع النبى. هتف الشاب المثقل بالحديد والقهر: - يا رسول‌اللّه.. يا معشر المسلمين. والتفت سهيل إلى النبى. - يا محمد بيننا و بينك العهد. [صفحه ۱۴۴] - صدقت. هتف أبوجندل: - يا للمسلمين أأردّ إلى المشركين ليفتنونى عن دينى. المسلمون ينظرون إلى أخ لهم لا يملكون له ضرّاً و لا نفعاً. هتف النبىّ يشدّ على يده من بعيد: - اصبر يا أباجندل و احتسب سيجعل لك اللّه ولمن معك فرجاً و مخرجاً. لم يتمالك عمر كعادته فخف إلى ابن سهيل.. اقترب منه هامساً: - إنما هم مشركون و دم أحدهم دم كلب. اقترب عمر أكثر و كشف للشاب مقبض السيف و كرّر قائلاً: - المشرك دمه كدم الكلب. أدرك الشاب ان عمر يغريه بقتل أبيه فاكتفى بنظرة طويلة إلى عمر و لم يقل شيئاً. كانت كلمات النبى ما تزال تتردد فى أُذنيه و فى قلبه ثم كيف له أن يقتل أباه؟ بل كيف للمسلم أن يغدر أو يفتك و يخون العهد الذى ابرم قبل لحظات.. و هل ستسكت قريش على قتل رجل كان يفاوض باسمها و يدافع عن آلهتها؟ كانت الأفكار تصطرع فى رأسه كخيول فى معركة.. و هو [صفحه ۱۴۵] يجرجر خطى واهنة عائداً مع أبيه. وانطوى نهار ذلك اليوم، وقد هبت نسائم السلام فوق رمال الجزيرة... وفى المساء و عندما كانت النجوم تنبض فى السماء كقلوب حالمة هبط جبريل يحمل بين جناحيه سورة «الفتح». وانساب نهر سماوىّ و الرسول يتلو: - إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً. وانبعث صوت فى الظلام: - وأين هذا الفتح و قد صدّونا عن البيت؟ أجاب النبىّ: - بل هو أعظم الفتح.. لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم و ان يرغبوا اليكم فى الأمان. وردّكم سالمين مأجورين فهو أعظم الفتح. هتف المسلمون: - صدقت يا رسول‌اللّه. و مضت أيام على السلام وثاب عمر إلى رشدة فتمتم آسفاً: - ما شككت منذ اسلمت إلّا ذلك اليوم. [صفحه ۱۴۷]

القسمت ۲۵

عاد رسول‌اللّه إلى المدينة، والفرحة تملأ صدره بفتح اللّه، فقد أمن جانب قريش و آن للدين الجديد أن يعبر شبه الجزيرة إلى العالم كله. توجه النبى كعادته إلى المسجد فصلّى ركعتين، غسلت عنه عناء السفر وهموم الحياة، و نهض النبىّ لزيارة ابنته.. ذكراه من خديجة وكوثره الذى وهبه اللّه... قرع الباب فهبت فاطمة للقاء النبى، كانت تحاول إخفاء ما تعانيه من إعياء و تعب. فتحت الباب و البسمة تشرق فى وجهها، تأمّل النبى وجه ابنته الوجه المشرق تشوبه صفرة فبدا كقمر انهكه السهر فى ليلة شتائية طويلة. قال الأب

بحزن: [صفحه ۱۴۸] - يا بنيـة ما هذا الصـفار فى وجهك و تغير حدقتيك؟ أجابت فاطمة بصوت واهن: - يا أبه ان لنا ثلاثاً ما طعمنا طعاماً... وقـد بكى الحسـنان من شـدة الجـوع حـتى غلبهمـا النـوم.. أيقـظ النـبى ريحـانتيه.. وضـعهما فى حجرة وقـد نسـيا ألم الجـوع كعصـفورين فرحين بدفء العش. كان على يبحث عمن يقرضه دريهمات يسدُّ بها رمق اسـرته، و كانت الشمس ترسل أشعتها ملتهبة. لم تمض مدّة حتى وجد من يقرضه ديناراً فانطلق يشترى به شيئاً. المدينة تبدو مهجورة و قد فرّ أهلها من الرمضاء و الحر. من بعيد لاح له رجل يمشـى على غير هـدى.. دقّق النظر فيه و لما اقترب منه بادره عليّ: - ما الـذى أخرجك يا مقـداد فى هذه الساعة؟ - الجوع يا أباالحسن.. عضـنى وأهلى الجوع.. وأبحث عمّن يقرضنى درهماً أو ديناراً. ان للجوع فعله العجيب فى النفوس.. تارة يهذبها فتسمو إلى السماء و تارة ينحطّ بها إلى أسفل السافلين. الجوع يصنع ملائكة و شياطين.. وكلا الخيارين يتوقّفان على إرادة الإنسان أو على غريزة [صفحه ۱۴۹] ذلـك الحيوان القـابع فى الأعمـاق المظلمـة وليس فى حيـاة على من وقت لكى تنشب معركـة بين الـذات و الايثـار لأنّه لايوجـد فى أعمـاقه المضـيئة من يعترض على إرادته التى صـقلتها النبوّات.. وهكـذا قـدم على كل ما يملكه إلى أخيه وعاد إلى البيت خالى اليـدين. كان المنزل هادئاً تغمرة رحمة من السـماء و وجد فى الحجرة رسولاللّه.. و كان الحسـنان فى حجرة و فاطمة تصـلّى فى المحراب وقـد ملأت فضـاء الحجرة رائحـة طيبـة لطعام طيب ولما جلس على قبالـة رجل ربّاه فى حجرة تمتم النبى و هو يرمق السـماء بخشوع: - اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا. فرغت فاطمة من تبتلها و مدت يدها إلى جفنة مغطاة.. و كان فى الجفنـة خبز و لحم. قال على متعجباً: - يا فاطمـة أنّى لك هذا؟ أجابت فاطمة بنت رسول السـماء: - هو من عند اللّه.. ان اللّه يرزق من يشاء بغير حساب. قال النبى مبتسـماً: - إن مثلكما كمثل زكريا إذ دخل على مريم فوجـد عنـدها رزقاً [صـفحه ۱۵۰] قال: يا مريم أنى لـك هـذا قالت هو من عنـد اللّه ان اللّه يرزق من يشاء بغير حساب. لو اُزيحت الحجب عن العيون لرأى سكّان المدينـة منزلاً إلى جوار المسـجد.. ولو دققوا النظر لرأوا أثر جبريل فى حجراته. يلـج المرء فيجد نفسه فى بقعة لا تنتمى إلى طين الأرض... إلى عالم من تراب... بقعة اختارتها الملائكة يوم هبطت على الأرض.. يوم اتصل النور بالطين ليولد الإنسان السماوى الذى انطوت فى أعماقه أسرار الوجود. كانوا خمسـة: محمد.. على.. فاطمة.. حسن و حسـين... اسـماء ولدت يوم عطس آدم... واسـتنشق نسـمة الحياة، و يوم قال اللّه لنوح: ان اصـنع الفلك بوحينا.. و يوم فار التنوّر كان نوح يتأمّل السماء و هى تنهمر مطراً كأفواه القرب وجبال من الغيوم تتراكم بعضها فـوق بعض.. ولتتحول تلـك الأـرض الجرداء إلى بحر متلاـطم الأـمواج و سـارت السـفينة بـاسم اللّه تشقّ طريقهـا فى موج كالجبـال.. ومقدمـة السـفينة تعلو و تهبـط مالهـا من قرار. أصوات الحيوانـات وهـدير الموج و تمتمـات دعـاء المؤمنين تمـتزج تطهر القلب فيتـألق الأمل.. الأمل بمسـتقبل طاهر للأرض. السـفينة تجرى لمسستقر لها.. وقد اجتمع المؤمنون أمام خشبة صغيرة مستطيلة الشكل فيها اسماء أثارت دهشـتهم و حركت [صفحه ۱۵۱] كوامن الأسـئلة فى أعماقهم.. كلمات صـغيرة واضـحة مكتوبة بلغة شعب عاش قبل الطوفان؛ كلمـات تحمل لهم الأمل بالخلاص بغصن زيتون أخضـر... كلمات تتألّق بألوان قزح.. كلمات حفرها نوح تعويـذة أمل فى الحياة: - يا إلهى.. و يا معينى. برحمتك و كرمك ساعـدنى. ولأجل هـذه النفوس المقدّسـة. محمـد. ايليا. شبر. شبير. فاطمـة. الـذين هم جميعهم عظماء و مكرمون. العالم قائم لأجلهم. ساعدنى لأجل أسـمائهم. أنت فقط تسـتطيع أن توجهنى نحو الطريق المسـتقيم. و تمخر السفينة عبـاب الميـاه حتى اسـتوت على الجودى و قيل يا أرض ابلعى ماءك و يا سـماء اقلعى... و عادت حمامـة بيضاء تحمل [صـفحه ۱۵۲] غصن الزيتون.. و قـد تـألقت فى السـماء ألوان الأمل و الربيع. و همس النبى فى اُذن التاريـخ و هو يضم ريحانتيه: - مَثَلُ أهل بيتى مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومَن تخلّف عنها غرق. [صفحه ۱۵۳]

القسمت ۲۶

الصحراء مدّ البصر... صحراء مليئة بالرمال.. تموج بالأسرار.. والغدر.. و خشخشة الأشواك تبوح باسرار الليل. آثار مشبوهة فوق الرمال الممتـدة بين حصون «خيبر» و مضارب «غطفان»، و عيون تبرق فى الظلام.. ورائحـة مؤامرات تـدبر فى الخفاء. فرسان «محمد» يجوبون

الصحراء يترصدون الذين كفروا انّهم لا- أيمان لهم... الآثار الغريبة فوق الرمال و الرجال الملثمون و العيون التى تبرق فى الظلام و خشخشة الأشواك فى الليل و أصوات كفحيح الأفاعى... ما بين حصون «السامرى» و مضارب غطفان عناكب «خيبر». تحوك شباكها.. و «غطفان» تكشّر عن أنياب ملوّثة بالصديد... و تسامع أهل البادية عن عجل يخور فى حصون وسط الرمال. [صفحه ۱۵۴] واهتزت راية العقاب فى قبضة على، وغادر آخر الأنبياء المدينة فى ألف و ستمئة محارب. ولكى يفوّت الفرصة على العقل اليهودى الذى جبل على الغدر فقد تحتم على قوّات المسلمين أن تقطع المسافة بأقصى سرعة.. لم تمرّ ثلاثة أيام حتى وصل النبىّ بجيشه مشارف خيبر... و كان الظلام يغمر الأشياء يحيطها بالغموض و الأسرار... و بدت الحصون فى رهبة الظلام كائنات خرافية رابضة فوق الأرض. قبل أن يطلع الفجر كان المسلمون يحيطون بخيبر من كل الجهات و قد استكملوا احتلال بساتين النخيل المحيطة. «العجل السامرىّ» يتطلّع إلى أوثان «غطفان» «التبر» يستنجد «الحجر» «العجل» يطلق خواراً عالياً.. و «الأوثان» حجارة صمّاء لا تفقه شيئاً مما يدور. طلع الفجر، و اخرجت الأفاعى رؤوسها، صرخ أحدهم مأخوذاً بهول المفاجأة: - محمد و الخميس! كان اسم «محمد» يخلع قلوبهم.. لا يتحملون سماع هذا الاسم.. كما كانوا يتميزون غيظاً لدى ذكر «جبريل» لو كان غير جبريل يحمل رسالة السماء إلى ابن مكة لكان لهم موقف آخر... [صفحه ۱۵۵] قال النبىّ مستبشراً وهو يراقب ذعر الأفاعى: - اللّه أكبر! خربت خيبر... انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين. الصحراء تراقب معركة و شيكة.. معركة مدمرة سيكون لها شأن. ووقف التاريخ يصغى إلى ما يدور بصمت. اجتاح المسملون المناطق المشجرة ما بين الحصون... ووقفت جدران «النطاة» و «الصعب» و «ناعم» و «الشق» و «القموص» و «الوطيح» و «سلالم» ثابتة فى وجه الهجوم و دار قتال رهيب فى الشوارع. سقط خمسون جريحاً من المسلمين.. صمد اليهود قاتلوا بضراوة.. على خيبر ألّا تسقط... لأن سقوطها يعنى أن يعود السامرى إلى التيه مرّة اُخرى.. سوف يشدّ عباءته و يرحل إلى سيناء ينقب فى آثار القوافل المسافرة لعلّه يعثر على أثر «الرسول» فيأخذ قبضة اُخرى. استشهد محمد بن مسلمة؛ ترصده يهودى من فوق الحصن ثم دفع عليه الرحى فسقطت عليه. الحصون منيعة واقفة كالجبال... والأمل قطرات من ندى تبخرت لدى شروق الشمس و «السامرى» ينظر باستعلاء و شماتة إلى نبىّ [صفحه ۱۵۶] العرب. نشر الظلام ستائره... و اشتعلت مواقد فى قلب الليل... و النسائم تداعب سعفات النخيل.. والأفاعى تخرج رؤوسها تحاول أن تصغى لما يدور حول المواقد. أطرق أبوبكر برأسه و تمتم آسفاً: - حصون مستعصية منيعة و اليهود مسلّحون بسلاح حسن... و «القموص» حصن لا يفتح.. أرأيتم الخندق حوله.. ارجو ألّا يكون رسولاللّه غاضباً منى. أجاب عمر: - ليس الذنب ذنبك يا صاحبى.. أنا أيضاً لم استطع ان أفعل شيئاً لقد قضيت النهار كلّه نهجم و يهجمون ولكن إخوان القردة يخرجون الينا من خلف الأشجار كالشياطين. علق «أبوعبيدة»: - اسمعتم ما قال رسولاللّه. - و هل ينسى قوله. - كلماته ما تزال ترنّ فى اُذنى: لأُعطينَ الراية غداً رجلاً يحبُّ اللّه رسوله و يحبُّه اللّه و رسوله. - ترى مَن سيكون صاحب الراية. [صفحه ۱۵۷] - الأمر واضح.. انّه علىّ. - ولكن علياً أرمد!! - ربما سلّم الراية إلىّ. - ماذا تقول يا أباحفص؟. - فى الصباح يعرف القوم السرى. كانت النجوم تومض من بعيد.. نام البعض و ظلّ البعض ساهراً يحلم براية حبّ أزلية. ونام أبوحفص بعد أن عزم على أن يكون غداً أقرب الناس إلى النبى علّه يسلّمه الراية التى أصبحت حلمه تلك الليلة. [صفحه ۱۵۹]

القسمت ۲۷

طلع الفجر و تنفس الصباح.. و زقزقت العصافير فى أعشاشها.. واستيقظت الكائنات لتبدأ يوماً جديداً... رماد الفجر يتبدد شيئاً فشيئاً.. وزرقه السماء الفيروزية تصبح شفّافة رائعة... و قد بزغت الشمس.. تألّقت خلف ذرى النخيل. بدت الحصون ذلك الصباح كابوساً يجثم فوق الصدور. صخرة تحطّمت فوقها المعاول... تحلّق المسلمون حول النبى.. يتطلّعون إلى رجل يحب اللّه و رسوله و يحبه اللّه و رسوله... و هتف النبى: - أين على؟ وتقدم فتى فى الثلاثين أو يزيد فاستلم راية العقاب وراح يصغى إلى صوت سماوى: [صفحه ۱۶۰] - انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فان لم يستجيبوا فقاتلهم.. انطلق فتح اللّه عليك. كان على علىّ

أن يقود نفس القوة التى هزمت مرتين... فقد عادت مرّة تلوم أبابكر و أبوبكر يلومها.. و عادت تحت راية عمر تجبنه و يجبنها... هرول على ليبث الحماس فى جنوده فبدا بحلّته الارجوانية جمرة متألّقة... و عند ما صار قريباً من «القموص» نزع درعه ليكون أكثر قدرة فى الحركة، و أمر جنوده أن يفعلوا ذلك. رفض اليهود ساخرين دعوة الإسلام ونداء السلام. و كان خيار الحرب هو الطريق لإحراق العجل. كان منظر علىّ بلا درع قد حرّك شهوة الغدر و الانتقام فى نفوسهم... فراح شجعانهم يخرجون مدججين بالسلاح.. و كانوا يتساقطون الواحد تلو الآخر عند قدميه. الذين كانوا يراقبون الصراع.. أدركوا أن هناك سرّاً فى انتصار علىّ.. رأوا بأُمّ أعينهم كيف هزم الحديد أمام قلب المؤمن.. وهبط «مرحب» درجات الحصن.. كتلة هائلة من الحديد والبأس.. فى قبضته حربة ذات ثلاث رؤوس كأفعى اسطورية.. تقدم «مرحب» ينقل خطاه المثقلة بالزرد و الحديد.. ليس هناك فى كلّ [صفحه ۱۶۱] جسده الفارع ثغرة يمكن للسيف أن ينفذ فيها. وتوقع المسلمون واليهود.. توقعوا جميعاً نهاية على.. تقدّمت كتلة الحديد.. ووجه مرحب حربته برؤوسها الثلاثة.. وكادت أن تنفذ فى صدر علىّ. ارتدّ علىّ إلى الوراء ثم قفز فى الهواء ليهوى بضربة هائلة أودعها غضب السماء... تحطّم الحديد. مرّت لحظة صمت قبل أن ترتطم كتلة هائلة بالأرض محدثة دوّياً تتخلع له القلوب المذعورة. وقد قتل داوود جالوت، واندفع علىّ بعد أن حطّم الغرور اليهودى إلى باب الحصن... لينتزعه وسط دهشة الجميع، وأصبح جسراً فوق الخندق يندفّق عبره المهاجمون.. و سرعان ما سقط «القموص» و «الوطيح» و «السلالم» و سقطت خيبر كلها.. اطلق العجل صرخة استغاثة قبل أن يحترق.. و تذرو الريح رماده فى الصحراء، و كان السامريون قد أقسموا قالوا: - لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى. و قال لهم اللّه: كونوا قردة خاسئين. طارت الفرحة للنبىّ فراشةً ترفرف... على يصنع الفرح لمحمد... وها هو أخوه جعفر يعود من أرض الحبشة... عاد يمخر البحر الأحمر و يطوى رمال الصحارى و معه الذين آمنوا... الذين اخرجوا من [صفحه ۱۶۲] ديارهم بغير حقّ إلّا أن قالوا ربنا اللّه. وعانق النبىّ أخاً لعلىّ وابناً لحامى آخر النبوّات فى التاريخ، هتف النبى و ينابيع الفرح تتدفق من عينيه: - ما أدرى بأيهما أشدّ سروراً. بقدوم جعفر أم بفتح خيبر. و قال أبوحفص لما رأى اسماء: - هذه البحرية، هذه الحبشية. و التفت اليها قائلاً: - لقد سبقناكم فى الهجرة... فنحن أحقّ برسول‌اللّه منكم. بركان غضب ينفجر فى أعماق امرأة هاجرت مرّتين... أعلنت اضرابها عن الطعام حتى ترى رسول السماء... - يا رسول‌اللّه ان ابن الخطاب يقول نحن أحقّ برسول‌اللّه سبقناكم بالهجرة. قال النبىّ: - فما كان جوابك له؟ قالت أسماء: - قلت له: كلّا واللّه كنتم مع رسول‌اللّه يطعم جائعكم و يعظ جاهلكم.. و كنا فى أرض البغضاء بالحبشة. - أجل واللّه.. انه ليس بأحقّ بى منكم.. له و لأصحابه هجرة [صفحه ۱۶۳] ولكم أهل السفينة هجرتان. غادرت الأفاعى جحورها... محطمة الأنياب.. وعاد السلام يرفرف فوق الأرض... وشدّ السامرى الرحال. التفّ بعباءته ميمماً وجهه نحو أرض التيه. مادت «فدك» بأهلها... لقد جاء «محمد» تحمله الملائكة تخفق فوق رأسه أجنحة جبريل. وجاء رجل من تلك النواحى يسعى: - يا محمد لكم الأرض.. ولنا السلام. - ولكم نصف ثمار الأرض.. والسلام. و لما قال اللّه:«وآت ذا القربى حقّه». أعلن النبىّ: - إنّ فدكاً لفاطمة. ومن ذلك اليوم أضحت «فدك» رمزاً لانتصار الإنسان على نفسه.. هزيمة «الاسخريوطى» و احتراق «العجل». و ستبقى فدك رمزاً للأمانة التى أبت السماوات و الأرض أن يحملنها و حملها الإنسان. و كانت فدك رمزاً لخلافة الإنسان على الأرض.. ستكبر «فدك» و سيكون لها وجود فى الجغرافية و فى التاريخ.. [صفحه ۱۶۴] سوف تستوعب عدن، سمرقند أفريقيا، سيف البحر مما يلى الجزر و أرمينيا و سوف تكبر لتشمل التاريخ البشرى بأسره. لقد وهب اللّه مريم كلمته فى المسيح و أعطى فاطمة فدكاً. وأراد اليهود بعيسى كيداً.. و أرادوا أن يصلبوه فرفعه اللّه إليه. وفدك ماذا سيحلّ بها يا ترى... كيف سيتصرف «الوثن» العربى القابع فى الأعماق المظلمة.. [صفحه ۱۶۵]

القسمت ۲۸

حان وقت الوفاء بالنذر... فلقد نهض الحسنان من فراش المرض.. وعادت إلى وجهيهما دماء العافية، السماء تنتظر نذراً نذره الإنسان.. نذراً يقدمه إلى نفسه ليكون قريباً من عوالم مغمورة بالنور. لا شىء فى منزل فاطمة. انطلق على إلى «شمعون» رجل من خيبر؛ رجل

شهد انهيار حصون مليئة بالسلاح.. بالذهب.. بالذكاء أمام رجل لا يملك سوى سيف وقلب تنطوى فى حناياه النجوم. و ها هو اليوم يأتى يطلب شيئاً عجيباً. انه يريد قرضاً.. ثلاثة أصواع من شعير.. الرجل الذى اقتلع باب «القموص» و قهر خيبر.. جاء يطلب حفنة من شعير... و امرأته بنت محمد... تملك أرض «فدك». تمتم شمعون و قد هزّته المفاجأة: - هذا هو الزهد الذى أخبرنا به موسى بن عمران فى التوراة! [صفحه ۱۶۶] طحنت فاطمة صاعاً.. الرحى تدور و «فضة» فتاة تعيش فى منزل فاطمة.. تجمع الدقيق.. صار الدقيق عجيناً.. ثم خمسة أقراص لكل صائم قرص شعير. النجم المهيب يهوى باتجاه المغيب.. يرسل أشعة الوداع يعلن عن نهاية يوم من حياة الإنسان و الأرض. الأسرة الصائمة تتهيأ للافطار.. لقمة خبز تقيم أود الجسد الآدمى ليكمل رحلته باتجاه النور. هتف انسان جائع: - مسكين! اطعمونى أطعمكم اللّه. الصائم فى لحظة الافطار يدرك آلام الجوع عندما تتلوى المعدة خاوية تبحث عن شىء تمضعه و إلّا مضغت نفسها. قدم الصائمون خبزهم.. وأفطروا على الماء.. و استأنفوا رحلة الجوع.. والجوع زاد المسافر فى ملكوت السماء... حيث تلال النور وبحيرات تزخر بالنجوم... الجوع يلجم الشيطان القابع فى الظلمات... يسحقه فاذا هو خائر كثور محطّم القرون. ومرّ يوم آخر و الصائمون فى رحلة إلى اكتشاف ينابيع الحب الأزلى... و كلّ شىء آيل إلى الزوال إلّا الحبّ... و الحبّ نداء اللّه إلى النفوس البيضاء. ومرّ يتيم... يالوعة اليتم فى ساعة الغروب. الكائنات تعود إلى [صفحه ۱۶۷] أوكارها و الطيور إلى أعشاشها والأطفال إلى أحضان زاخرة بالدفء. وفى ساعة الغروب تتجمع الدموع فى عيون اليتامى كسماوات مشحونة بالمطر... يتجمّع البكاء فى القلب.. و المرارة فى النفس.. فكيف اذا اجتمعت مع الجوع... و هل تتحمل نفوس الأطفال البرد و الجوع.. نادى اليتيم فى لحظة الغروب الحزين: - أطعمونى... مما أطعمكم اللّه. هناك فى أعماق النفوس البيضاء كنوز من اللّذة أين منها لذائذ البطن... فكيف مع نفوس براها الجوع والنذر حتى عادت شفافة كالضياء ساطعة كالنور.. لبى الصائمون نداء اليتيم.. فباتوا ليلتهم يطوون رحلة مضنية تكاد تمزّق الجسد و تحيله إلى حطام.. حيث يشهد عالم الإنسان اللانهائى انتصار الملائكة و هزيمة الشيطان.. إلى الأبد. السماء تراقب نفوساً فى الأرض تطوى مسافات الجوع وفاءً لنذرها. وفى اليوم الثالث مرّ أسير ينشد لقمة خبز أو تميرات. الأجساد ترتعش أمام أمواج الجوع.. العيون غائمة... والوجود يغمره ضباب و دخان و رياحين النبوات تهتز.. تذبل أو تكاد، و النفوس تشتدّ نصوعاً والورود تضوّعاً. [صفحه ۱۶۸] فاطمة تزداد نحولاً- غارت عيناها.. وصوتها زاد وهناً على وهن وهى قائمة تصلّى فى المحراب.. وفى منزل آخر الأنبياء هبط جبريل يحمل هدية السماء... سورة الإنسان و انها: - بسم اللّه الرحمن الرحيم. هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا. انا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً. انا هديناه السبيل امّا شاكراً و امّا كفورا. انّا اعتدنا للكافرين سلاسل و اغلالاً و سعيرا. إنّ الأبرار يشربون من كأسٍ كان مزاجها كافورا. عيناً يشرب بها عباد اللّه يفجّرونها تفجيرا. يوفون بالنذر و يخافون يوماً كان شرّه مستطيرا. و يطعمون الطعام على حبّه مسكيناً و يتيماً و أسيرا. انّما نطعمكم لوجه اللّه لا نريد منكم جزاءً و لا شكورا. انّا نخاف من ربّنا يوماً عبوساً قمطريرا. فوقاهم اللّه شرّ ذلك اليوم ولقاهم نضرةً و سرورا. وجزاهم بما صبروا جنّة وحريرا... انّ هذا كان لكم جزاءً و كان سعيكم مشكورا. [صفحه ۱۶۹] ورأت فاطمة فى تلك الليلة ما لا عين رأت وسمعت ما لا أذن سمعت و لم يخطر على قلب بشر. رأت اشجاراً خضراء مدّت عروقها فى كثبان من المسك و كانت الأنهار الصافية المتألقة تتكسّر امواجها عند جذوع الأشجار.. و نسائم تمرّ تلامس الأغصان فتصطفق الأوراق بصوت حالم.. وقد بدت كبائس اللؤلؤ الرطب فى ذرى الأغصان... و تبدت الثمار فى غلف الأكمام... و قصور الزبرجد متناثرة هنا و هناك كالأحجار الملوّنة. ينابيع السلسبيل تتدفق... و أطفال كاللؤلؤ يحملون كؤوس الفضة ملأى بالعسل المصفى... يتألقون فى الظلال و فى الضياء... فى ربيع دائم.. لا فيه شمس و لا زمهرير. سادة القصور يرتدون ثياباً من سندس أخضر و من استبرق.. فى أيديهم كؤوس طافحة يستمتعون باحتساء شراب الزنجبيل. الوجوه طافحة بالسعادة الأبدية.. وجوهٌ نظرة.. نحتها النسيم الربيعى المشبع بشذى الورود والأزهار الخالدة. رأت فاطمة كلّ ذلك. ساحت بين تلال المسك و قصور الزبرجد.. غرقت فى بحيرات السعادة... كادت تذوب شوقاً فهناك اللّه.. و ما أحلى أن يجاور الإنسان مبدأ الانسان، و قد تحرّر تماماً من ويلات الأرض. [صفحه ۱۷۱]

القسمت ۲۹

مضى التاريخ يجوس خلال الرمال.. ينظر بدهشة إلى أرض أرادها اللَّه أن تكون نحلة لبنت رسوله، مضى التاريخ يجوس خلال الرمال.. ثلاث سنين سويّا يشعل الحوادث هنا وهناك... وقعت «مؤتة» و قد قتل «جعفر».. قطعت يداه فأبدله اللَّه جناحين يطير بهما فى الجنّة. فتحت مكّة.. تهاوت الأصنام و الأوثان صارت أنقاضاً.. وقد دخل حفيد ابراهيم المعبد يحطم بفأس جدّه وجوه الآلهة... وعادت حمائم السلام إلى وادٍ غير ذى زرع. وتوقّف التاريخ فى وادى حنين... يوم اعجبت المسلمين كثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً ثم أنزل اللَّه سكينته على رسوله و على المؤمنين. دارت رحى فاطمة و دار الزمن دورته و مرّ عام فإذا رسولاللَّه يتحدّى دولة الروم و جيوش هرقل. [صفحه ۱۷۲] القبائل العربية ترسل وفودها إلى المدينة وقد فاءت إلى دين اللَّه.. و رأى الناس وهم يدخلون فى دين اللَّه أفواجاً. وقد أسلم كعب فأعطاه نبى اللَّه «البردة»، و أسلم باذان بن ساسان فى اليمن. وجاء جبريل يحمل سورة «براءة»، و أذان من اللَّه و رسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر انّ اللَّه برىءٌ من المشركين و رسولُه. ودوّت كلمات علىّ فى الكعبة وما حولها: - لا يدخل الجنّة كافر، و لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. ثم فرضت السماء الزكاة حتى لاتكون الأرض دولة بين الأثرياء... و يضيع الفقراء. و بنى المنافقون مسجداً هو مسجد ضرار.. و ان المساجد للَّه... و ما كان للَّه يبقى... و ما كان لغير اللَّه يذهب هباءً منثوراً... أرسل النبىّ من يشعل النار فى مسجد لم يؤسس على التقوى فالتهمته ألسنة النار و ولى المنافقون الأدبار... و لاذوا بالفرار.. و ذرّت الريح «ضرار».. رماداً و غبارا. ودارت رحى فاطمة و دار عام.. وجاء وفد من نصارى نجران.. جاء يجادل فى طبيعة المسيح وفى مريم؛ جاءوا يقولون انّ عيسى [صفحه ۱۷۳] ابن اللَّه. وقد قال اللَّه: - انّ مَثَل عيسى عند اللَّه كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون.. - من تراب؟!! - كلمته القاها إلى مريم. - بل ابن اللَّه. - يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ألّا نعبد إلّا اللَّه و لا نشرك به شيئاً و لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللَّه. - لا ندع الربّ يسوع و قد صُلِب من أجلنا؛ من أجل الإنسان الخاطئ. - تعالوا ندع ابناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة اللَّه على الكاذبين. كان «العاقب» يراقب موكباً عجيباً... رجل يحمل فى روحه ملامح المسيح.. يمسك بيده اليمنى صبيّاً فى السابعة و فى اليسرى صبياً فى السادسة و معه شابّ يكاد أن يكون له ظلّاً و خلفهم فتاة تشبه مريم. نصارى نجران فى حيرة و رأى العاقب فى السماء دخاناً... و تلك الوجوه الخمسة تتألّق فى الضوء... و الفضاء مشحون بالغضب و اللعنة [صفحه ۱۷۴] قاب قوسين أو أدنى... تأثرت القلوب و دمعت العيون خشية للَّه... و مدّ العاقب إلى النبىّ يد السلام، فقال النبىّ: - لنجران جوار اللَّه و ذمة محمد رسولاللَّه. وعاد أهل نجران إلى ديارهم.. و تمرّ الأيّام.. و ينطلق رسول السماء إلى حجّ بيت اللَّه... و اختارت السماء «غدير خمّ» فى طريق العودة و هبط جبريل: - يا أيّها الرسول بلِّغ ما أُنزل اليك من ربِّك و ان لم تفعل فما بلّغت رسالته. - والناس؟ - اللَّه يعصمك من الناس. الرمال تشتعل لهيباً لا يطاق. و توقف النبى فتوقف معه مئة ألف أو يزيدون، و علامات استفهام ترتسم على الوجوه و توقّف التاريخ يصغى لما يقول آخر الأنبياء: - ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ - بلى يا رسولاللَّه. - مَن كنتُ مولاه فهذا علىٌّ مولاه... أيّها الناس ستردون علىَّ الحوض و أنا سائلكم عن الثقلين. [صفحه ۱۷۵] - و ما الثقلان يا نبىّ اللَّه؟ - كتاب اللَّه و عترتى أهل بيتى. و مضى التاريخ لا يلوى على شىء... و عادت قوافل الحج الأكبر تستأنف رحلة العودة إلى الديار وقد دخل الناس فى دين اللَّه أفواجاً وهبط جبريل يتلو على الرسول آخر آيات السماء.. - اليوم أكملت لكم دينكم و أتممتُ عليكم نعمتى و رضيتُ لكم الإسلام دينا. و شعر النبى ان مهمته فى الأرض قد انتهت و آن له أن يستريح ولكن... [صفحه ۱۷۷]

القسمت ۳۰

كانت فاطمة تقرأ القرآن.. فى يدها مصحف.. فجأة سقط المصحف على الأرض... ثم حلّق فى السماء يخترق الغيوم.. و يتيه بين

النجوم.. ورأت فاطمة نفسها تطير وراءه.. تريد اللحاق... و كان القرآن ينادى: - هلمى إلىَّ.. هلمى إلى السماء. و نظرت فاطمة وراءها فرأت الأرض زيتونة مشحونة بالبرق و بالرعود. هبّت فاطمة من نومها... و هواجس الخوف تحاصرها. قالت لأبيها: - يا أبتى أنى رأيت قرآناً يسقط من يدى. قال الذى عنده علم الكتاب: - يا فاطمة.. يوشك أن أُدعى فأُجيب.. وقد عرض علىَّ جبريل [صفحه ۱۷۸] القرآن فى هذا العام مرّتين. تجمّعت فى عينيها الدموع... ضرب الحزن اطنابه فى القلب الكسير... دق أوتاد خيامه. قال الأب ليسرّى عن ابنته: - لا تحزنى.. أنتِ أول أهل بيتى لحوقاً بىّ. أشرقت شمس الأمل.. وجدت لها طريقاً خلال الغيوم فعادت البسمة تموج فوق وجه أزهر... وجه يتألّق بنور اللَّه، واللَّه نور السماوات و الأرض. و تمرّ الأيّام متوجسة و الأرض تفتقد جبريل. سقط رسول السماء مريضاً فوق الأرض.. عصفت به الحمى.. عجز الماء عن اطفائها... و شعر الرجل السماوى بأنّ الأُفق مشحون بالمؤامرة وان هناك عيوناً تبرق فى الظلام تريد الاستحواذ على أمانة.. تهيّبت حملها السماوات و الأرض. هناك فى الخفاء و بعيداً عن العيون كان العنكبوت تنسج شبكة مخيفة. و كانت هناك فراشة قادمة... تحلم بالربيع دفعتها ريح صفراء فهى توشك ان تسقط فى بيت هو أهون البيوت. فى الليل و الناس نيام حطّم الشيطان أغلاله و ذرّ قرنيه يريد الفتنة... [صفحه ۱۷۹] كان الجوّ مكفهراً.. و قد ادلهمت السماء.. و سكون مهيب يجثم فوق المدينة.. والقلق عاصفة مدمّرة تهزّ القلوب تريد اجتثاث الطمأنينة منذ بيعة «العقبة» و «بيعة الرضوان»، كانت القلوب خائفة وهى تنطوى على شىء يوشك أن تفقده... السلام... كان محمد سلاماً فى الأرض.. والأرض توشك أن تفقد هذا السلام... و رسولاللَّه يغلى بالحمّى...، وأفواه القرب تريد اطفاء الجمر، حتى اذا هدأت الحمى وانتظمت انفاس النبىّ أرسل وراء أصحابه وقد شمّ فى الفضاء رائحة غريبة.. طفحت الفرحة فوق الوجوه وهى تنظر إلى النبىّ هادئاً قد فارقته الحمّى؛ قال الرسول و هو يريد تمزيق شباك العنكبوت: - ألم آمركم أن تنفذوا جيش اسامة. تمتم بعض الصحابة: - بلى يا رسولاللَّه. - لِمَ تأخرتم عن أمرى؟ قال أبوبكر مبرّراً: - انى خرجت إلى الجرف ثم رجعت لأُجدد بك عهداً. وعلّق عمر: - وأنا لم أخرج.. لا أُريد أن اسأل عنك القوافل. [صفحه ۱۸۰] العنكبوت منهمكة فى مدّ الخيوط لاصطياد فراشة الربيع و النبى يحاول تمزيقها: - انفذوا جيش اسامة.. لعن اللَّه مَنْ تخلف عن جيش اسامة. تسارعت أنفاس الرسول وكان قلبه يخفق بشدّة و قد عاودته الحمى، و شعر بدوار يعصف برأسه.. حتى غامت الأشياء حوله.. و بكت النسوة.. و كادت فاطمة أن تموت. أفاق النبىّ من غيبوبته و قد شعر بالخيوط الواهنة تسدّ الطريق على فراشة الربيع فحاول للمرّة الأخيرة: - أئتونى بدواة و صحيفة لأكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً. هبّ صحابى ينشد الهداية.. ولكن العنكبوت كانت قد سدّت الطريق أمام فراشة النور. قال عمر آمراً: - ارجع لقد غلب الوجع رسولاللَّه... انه ليهجر و حسبنا كتاب اللَّه. رمق أبوبكر صاحبه بنظرات ذات معنى. و قال الذى نهض: - هل أحضر لك الدواة يا نبىّ اللَّه؟ قال النبى بحزن: [صفحه ۱۸۱] - أبعدَ الذى قاله عمر. واحتجت النسوة من وراء حجاب و كان صوت أُمسلمة واضحاً: - ائتوا رسولاللَّه حاجته. هتف عمر بعصبية: - اسكتن فانكن صواحب يوسف.. إذا مرض عصرتن أعينكنّ واذا صح أخذتن بعنقه. نظر النبىّ إلى أبىحفص و تمتم: - هنّ خيرٌ منكم. و بكى أحد الصحابة، و قد شعر بهبوب العاصفة... و تفرق من كان حاضراً.. ولم يبق مع النبىّ إلّا شاباً لا يفارقه مذ أطلّ على الدنيا وهاهو اليوم الموعود.. يوم تعود فيه النفس إلى بارئها راضية مرضية.. اليوم هو يوم الاثنين.. و «صفر» لا يريد الانطواء إلّا بعد أن يشهد رحيل السلام.. كان علىّ يعتنق الرجل الذى ربّاه صغيراً و علّمه كبيراً وفتح له أبواب الملكوت.. و النبىّ يشدّ على يد فتى شرى روحه للَّه و الرسول.. اللَّه وحده الذى يراقب الأعماق.. كان علىّ كالمذهول. ودّ لو يقيه بروحه... الحياة مريرة دون محمّد. و ما أحلى الموت معه أو دونه. [صفحه ۱۸۲] نهضت «فاطمة» تجرجر نفسها بعناء و تبعها السبطان.. فإنّ للنبىّ والوصى ساعة من وداع بعد رحلة دامت ثلاثة و عشرين سنة.. لحظات كالقرون المتمادية والنبى ينوء بنفسه، يصغى إلى ملائكة الرحمن، ولكن أهل الأرض عن السمع لمحجوبون.. لم يسمعوا شيئاً سوى كلمات هى آخر ما حفظته الأرض من رسول السماء: - بل الرفيق الأعلى.. وانطلق «محمد» نحو اللَّه يعبر السماوات مخلّفاً جسده بين ذراعى علىّ.. وقد هبّت العاصفة، و حطّم الشيطان أغلاله فراح يوقظ الأوثان العربية. [صفحه ۱۸۳]

القسمت ۳۱

المدينة هائجة وقد زلزلت الأرض زلزالها.. فالقلب الذى كان ينبض حبّاً للفقراء والمحرومين قد توقف إلى الأبد... وانقطع ذلك الحبل الممدود الذى يربط السماء بالأرض.. واختفت ظلال جبريل وبدا المسجد خاوياً على عروشه.. العيون تبكى و الحناجر تشرق بالعبرات. ليت السماء اطبقت على الأرض وليت الجبال تدكدكت على السهل. هل رأيت قطيعاً من الماشية سقط راعيها فراعها خوف من ذئب قد يشدّ عليها فهى تجرى فى كلّ اتجاه تبحث عمّن يهبها الطمأنينة حتى لو كان وهماً. وهل رأيت غريقاً فى بحرٍ هائج يتشبث بكلّ شىء غير الماء حتى لو كان قشّة لا شأن لها.. هكذا كانت المدينة... ذلك النهار العاصف كان أبوحفص زائغ [صفحه ۱۸۴] العينين يبحث عن صاحبه يترقّب حضوره بين اللحظة و الأخرى... همس فى نفسه حانقاً: - ما كان على أبىعائشة أن يذهب إلى «السنخ» فى هذه الأيام... كان منظر «عمر» مخيفاً بطوله الفارع و عينيه المتوقدتين وزادت نظراته الغاضبة هيبته فى النفوس فتنحوا عن طريقه و هو يدخل منزل النبى. كشف عمر عن وجه النبىّ و تمتم بصرامة: - لقد اغمى على رسولاللّه. قال أحد الحاضرين مستنكراً: - قد مات رسولاللّه. أجاب عمر بغضب: كذبت ما مات ولقد ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران. غادر عمر المنزل هائجاً ووقف وسط الجماهير و هو يلوح بسيفه: - ان رجالاً من المنافقين يزعمون ان رسولاللّه قد مات وانّه واللّه ما مات ولكنه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران واللّه ليرجعنّ رسولاللّه فليقطعنّ أيدى رجال و أرجلهم ممن أرجف بموته. وجد القطيع الممزّق شبحاً لراع فالتفت حوله تلتمس الأمن؛ [صفحه ۱۸۵] ووجد الغرقى قشّا فراحوا يتشبثون. و عندما يفقد الإنسان الأمل فانه قد يعمد إلى وهم يهبه شكل الحقيقة فى لحظة يأس مريرة... تحلّق الناس حول رجل يبرق و يرعد و يهدّد من يقول بموت الرسول... و ما أجمل ما يقوله «عمر» ان محمد لم يمت و لا يموت حتى يظهر دينه على الدين كلّه.. للّه درّك يابن الخطّاب. كان المغيرة ينظر إلى أبىحفص يفكر فى لغز استعصى حله عليه.. ارتسمت علامة استفهام كبيرة ما تزال حتى اليوم و ربما إلى يوم الدين. من بعيد لاح أبوعائشة يحث الخطى.. ولعل «المغيرة» قد لاحظ شيئاً.. فقد بدا الرجل الذى كان يهدد و يتوعد من حوله بالويل والثبور يخفف من حدته.. و انحسرت تلك الزوبعة المدمّرة ليحل مكانها سكون رهيب. هتف أبوبكر من بعيد: - على رسلك ايها الحالف. ثم التفت إلى الأمّة المدهوشة: - ايها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات و مَن كان يعبد اللّه فان اللّه حىٌّ لا يموت.. و ما محمد إلا رسول قد خلت من [صفحه ۱۸۶] قبله الرُسل أفئن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم و من ينقلب على عقبيه فلن يضرّ اللّه شيئاً. تنفس أبوحفص الصعداء و هو يرنو إلى صاحبه الذى حضر فى الوقت المناسب.. كان المغيرة ما يزال يرقب أباحفص و هو يكاد يصعق.. لقد انتهت الثورة. فجأة هدأت العاصفة. استسلمت عند قدمى أبىعائشة. وقف عمر إلى جانب صاحبه وانضم اليهما رجل ثالث هو «ابن الجراح» و تبادل الثلاثة نظرات هى أبجدية كاملة.. ربما كانوا يفكرون للمستقبل ليومين أو ثلاثة أو ربما للتاريخ كلّه. ان كل التحولات الاجتماعية الكبرى انما تولد فى الضمائر قبل أن تجد طريقها إلى الواقع.. انّها موجودة فى دائرة القوة حتى يأتى من يخرجها إلى دائرة الفعل.. و كان فى ضمائر جلة المهاجرين و قريش قاطبة ألا- تجتمع النبوة و الخلافة فى بنىهاشم... و قد قرأ رجال ما يجول فى الخواطر ليخرجوا ما استتر فى الضمائر و عجز النبى عن هزيمته يوم هزم الأوثان العربية. النبى الذى جاب الصحراء ينشر فيها النور و الحياة هو الآن جثة هامدة.. و توقف القلب الذى ينبض بالحب.. القلب الذى سحر كل القلوب فتآلفت. و مذ توقف هذا القلب انفرط عقد القلوب جميعاً كما [صفحه ۱۸۷] التيار الكهربائى إذا انقطع انطفأت المصابيح وعاد الظلام فلا تسمع سوى أصوات بومة تصيح: - هوو.. هوو.. تبشر بزمن الخرائب و الاطلال. يا له من صباح مظلم كئيب.. احترقت شمسه وانتحر ضياؤه.. عيون غارقة فى بحيرات الدمع و عيون تترصد بحذر بيتاً فيه جسد مسجى و قلوب كسيرة و رياحين ذابلة و شموع منطفئة.. و هناك و بعيداً عن كل العيون اجتمع رجال من «الأوس» برجال من «الخزرج» يتشاورون فى رجل «مزمّل» و قد أوجسوا خيفة من غدر قريش. «السقيفة» تكتظ برجال نصروا الرسول و آزروه يوم كان شريدشا، و قهروا به الذين شرّدوه عن دياره بغير حقّ. طافت خيالات «بعاث» فى فضاء السقيفة، نشرت ظلالها سوداء كالحة.. نكأت جروحشا ضمدها رسول السماء فاندملت.. إلى حين. قال سعد و كان دنفا: - يا معشر

الأنصار ان لكم سابقة فى الدين و فضيلة ليست لقبيلة من العرب.. فلا تدعوهم يغلبوكم على أمركم. قال زيد مؤيداً: - وفقت فى الرأى و أصبت فى القول. ولن تعدو ما أمرت نوليك [صفحه ۱۸۸] هذا الأمر، فأنت لنا مقنع و لصالح المؤمنين رضى. قال «ابن حضير»: - ولكنهم عشيرة النبى و هم أولى به من غيرهم. أجاب ابن المنذر مستدركاً: - إذن نقول لهم منّا أمير و منكم أمير. هتف سعد غاضباً: - هذا أوّل الوهن. و تمتم ابن الأرقم متأسفاً بصوت لم يسمعه أحد: - لك اللّه يا علىّ.. ان الملأ يأتمرون بك لى... وانسلّ من بين الجمع شبحان راحا يحثان الخطى و قد انبعثت فى الأعماق اصداء معركة قديمة فى يوم من أيام العرب. قال عويم يحث صاحبه: - اسرع يا معن قبل أن تعقد لسعد. [صفحه ۱۸۹]

القسمت ۳۲

بدا «أبوعائشة» متردّداً يقدم و يحجم.. كرجل تاهت به السبل.. يزن الأُمور بوقار تاجر قديم، قال فى نفسه: ليقنع بنوهاشم بالنبوة وليدعوا الخلافة لبطون قريش ولكن ماذا يفعل و وصايا النبى فى الصدور وفى القلوب. أبوبكر غارق فى تأمّلاته.. وكان صاحبه يختلس اليه النظرات... نظرات مصممة قويّة ثاقبة لايعرفها سوى «الجراح».. وبدا أبوحفص فى تلك اللحظات قوياً كالعاصفة جباراً كالسيل وقد اشتعلت فى أعماقه كلمات قالها يهودى ذات يوم: - أنت ملك العرب. كان عمر غارقاً فى هواجسه عندما وصل «عويم» و «معن». هتف «أبوحفص»: - ماذا؟!! [صفحه ۱۹۰] لم يكن هناك وقت.. فالفرص تمر مر السحاب وانطلق ثلاثة رجال.. لو رأيتهم من بعيد لأدركت أية طامة وقعت لهم أو عليهم... كانوا يسرعون الخطى.. والرسول ما يزال مسجى.. فى فراشة... يتحدث بلغة الصمت.. لغة عجيبة لاتفهمها سوى أُذنٌ واعية... رجال من الأوس و رجال من الخزرج يأتمرون قد أوجسوا خيفة.. ورجال من قريش يحثون الخطى إلى سقيفة لبنى‌ساعده و النبى يدعوهم بلغة الصمت.. «الغنائم» تلوح من بعيد شهية يسيل لها اللعاب و قد ترك «الرماة» مواقعهم.. فى «عينين» و الرسول يدعوهم. اقتحم الثلاثة «السقيفة»، وبدت الوجوه مخطوفة اللون شاحبة قد عراها اصفرار. لقد انتقض الغزل و هو فى أيديهم.. كان أبوحفص على و شك أن يثور لولا- أبوبكر: مهلاً- يا عمر: الرفق هنا أبلغ. و توجه أبوبكر إلى الأوس و الخزرج بكلمات هادئة: - يا معشر الأنصار من ينكر فضلكم فى الدين و سابقتكم العظيمة فى الإسلام؟.. و اللّه رضيكم لدينه و رسوله أنصاراً وانتخبكم محلّاً لهجرته و فيكم جل أزواجه و أصحابه.. ثم أردف و هو يرمى سهماً فى الهدف. [صفحه ۱۹۱] - نحنُ الأُمراء و أنتم الوزراء. اعترض «الحبّاب» و قد أخفق فى إخفاء وهنه: - بل منا أمير و منكم أمير. انتفض عمر ليشدّد الهجوم: - هيهات لا يجتمع اثنان فى قرن.. واللّه لا- ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيّها من غيركم ولكن العرب لاتمتنع ان تولّى أمرها من كانت النبوة فيهم و ولى أُمورهم منهم ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة و البرهان المبين.. وأردف و قد أخذه حماس المنتصر: - من ذا ينازعنا سلطان محمد و امارته و نحن أولياؤه و عشيرته الّا مبطل أو متجانف لإثم أو متورّط فى هلكة. رد الحباب بغضب: - املكوا أمركم يا معشر الأنصار و لا تسمعوا مقالة هذا فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر.. فان أبوا فاجلوهم عن البلاد.. إنا أحق بالأمر منهم، بأسيافنا دان العرب لهذا الدين.. وأخذته فورة حماس فراح يطلق التهديدات حمماً: - أنا شبل فى عرينة الأسد... و اللّه لا يرد على ما أقول إلّا حطمت أنفه بالسيف. [صفحه ۱۹۲] انبرى عمر لامتصاص العاصفة بمرونة متكلفه: - اذن يقتلك اللّه. - بل إيّاك يقتل. و نهض رجل من الخزرج و قد رفع راية بيضاء: - إنّا أول من نصر اللّه و رسوله و جاهدنا المشركين لانبتغى من الدنيا عرضا... ألا و ان محمداً من قريش و قومه أولى به وأحقّ.. فاتقوا اللّه يا معشر الأنصار و لا تخالفوهم.. و لا تنازعوهم. تنفّس عمر بارتياح و هو يراقب تهاوى القلاع.. هتف الحباب مخذولاً: - حسدت ابن عمّك!! - لا- واللّه.. ولكن كرهتُ ان أُنازع قوماً حقّاً جعله اللّه لهم. و انبرى أبوبكر لاقتطاف أولى الثمار. أشار إلى عمر و أبى‌عبيدة و قال: - قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فايُّهما شئتم فبايعوا. و بطريقة لم تبد عفوية هب عمر مستنكراً: - معاذ اللّه.. أنت أفضل المهاجرين.. ابسط يدك. بسط «أبوبكر» يده و قد سقطت التفاحة فى قبضته؛ و نهض رجل من الخزرج فبايع.. و رجل من الأوس.. و تهاوت القلاع و الحصون.. [صفحه ۱۹۳] وتمت أول «فلتة» فى تاريخ الإسلام.

بدا «الحباب» متشنجاً كمن أصابه مس من الجنون فالتفت اليه أبوبكر مدارياً: - أتخاف منى يا حباب؟ - ليس منك ولكن ممن يجيء بعدك. - اذا كان ذلك كذلك فالأمر اليك و إلى أصحابك ليس لنا عليكم طاعة. - هيهات يا أبابكر اذا ذهبت أنا و أنت جاءنا من بعدك من يسومنا الضيم. و قال أبوعبيدة بلين: - يا معشر الأنصار أنتم أولى فضل ولكن ليس فيكم مثل أبى‌بكر و عمر و على. أجاب زيد و قد هزه اسم على: - إنّا لا ننكر فضل من ذكرت و ان منّا سيّد الأنصار سعد بن عبادة و إمام العلماء سعد بن معاذ و ذوالشهادتين خزيمة... و ان بين من ذكرت من قريش لو طلب الخلافة لا ينازعه أحد. - مَن؟!! - على بن أبى‌طالب... واللّه ما اجتمع الأنصار فى السقيفة إلّا بعد شمّوا رائحة غدر دبّر بليل. [صفحه ۱۹۵]

القسمت ۳۳

انطوى يوم الاثنين و قد ألقى الحزن كلاكله فوق الأرض كغراب اسطورى. فاطمة تنوء بنفسها و قد اسندت رأسها إلى صدر لم يعد النسيم يزوره. كانت تصغى إلى صمت الأنبياء وللصمت حديث تسمعه القلوب و تصغى إليه العقول، العينان اللتان كانتا نافذتى نور قد اسدلتا جفونهما واليدان اللتان كانتا مهداً هما الآن مسبلتان. الروح التى كانت تصنع التاريخ و الإنسان قد رحلت بعيداً. غادرت هذا الكوكب الزاخر بالويلات. لقد حلّت لحظة الفراق، و تخفف الإنسان السماوى من ثوبه الأرضى ليرحل إلى عوالم حافلة بالنور و قد سمع أهل الأرض كلمات النبى، كان ينظر إلى السماوات و يهتف: - بل الرفيق الأعلى. [صفحه ۱۹۶] أيُّها الصامت.. صمتك أبلغ من كل أبجديات الدنيا و سكونك المدوى صرخة حقّ فى عالم الأباطيل. و قد زلزلت الأرض زلزالها، انهار عمود خيمة كانت تعصف بها الريح.. و تمزّق الكساء اليمانى، و كان يدّثر نبيّاً هو خاتم الأنبياء و رجلاً يشبه هارون فى كل شىء إلّا النبوة، وامرأة هى سيدة بنات حوّاء وسبطين هما آخر الأسباط فى التاريخ. جثا على أمام جسد كانت روحه العظيمة تضىء الجزيرة و بقايا نور فى الجبين البارد تشبه شمساً جنحت للمغيب.. وهناك خلف جدران المنزل الذى جثم عليه حزن سرمدى كانت ترتفع ضجّة رجال.. كريح صفراء كانت تقترب من المسجد حيث لا يفصله عن المنزل سوى جدار يكاد أن ينهدّ. و خفّ رجل هاشمى يحمل انباء السقيفة.. ستهب الريح عاصفة مدمّرة.. لاتبقى و لا تذر. تساءل على: - ما قالت الأنصار؟ - قالت منّا أمير و منكم أمير. - فهلاّ احتججتم عليهم بأنّ رسول‌اللّه وصى بأن يحسن إلى محسنهم و يتجاوز عن مسيئهم. - و ما فى هذا من الحجّة عليهم؟ - لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم، سكت هنيهة و سأل: [صفحه ۱۹۷] - فماذا قالت قريش؟ - قالت: انا شجرة محمد. تتم على بأسى: - احتجوا بالشجرة و أضاعوا الثمرة. وقف هارون حائراً يتأمل رمال سيناء.. يترقّب عودة أخيه.. و كان موسى يمم وجهه شطر الجبل.. - ما أعجلك عن قومك يا موسى؟ - هم أولاء على أثرى وعجلت اليك رب لترضى. - فإنّا قد فتنّا قومك من بعدك و أضلّهم السامرىّ. وعاد موسى غضبان أسفاً يحمل معه ألواح السماء. و كان هارون يقاوم العاصفة و كان العجل يخور وسط العاكفين. قال هارون مشفقاً: - إنّما فتنتم به و إن ربّكم الرحمن فاتبعونى واطيعوا أمرى. - لن نبرح عليه عاكفين حتى يعود الينا موسى. و لمّا عاد موسى ألقى الألواح و قال بغضب: - بئسما خلفتمونى من بعدى. و قال هارون بحزن: - إنّ القوم استضعفونى و كادوا يقتلوننئ. [صفحه ۱۹۸] ولمّا سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح و تمتم: - إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربِّهم و ذلّة فى الحياة الدنيا. ونظر موسى إلى السماء و قال متضرعاً: - ربِّ اغفر لى و لأخى و أدخلنا فى رحمتك و انت أرحم الراحمين. و التفت موسى إلى السامرىّ: - ما خطبك يا سامرىّ؟ - بصرتُ بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها و كذلك سوّلت لى نفسى. قال موسى و هو ينبذه فى قلب التيه: - إذهب فإن لك فى الحياة ان تقول لامساس و ان لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً. وضاع السامرىّ فى التيه.. بين تموّجات الصحراء.. وعواء الذئاب. كان صوته يتبدد فى المدى يبحث عن وطن.. والوطن لا يقبل شجراً مجتثاً من فوق الأرض ماله من قرار. الصحراء بعيدة.. و الرجل المنبوذ يشدّ إلى جسده عباءة خرّقتها الريح و هو يطوى التيه.. يقبض قبضة من الرمال يشمّها علّه يجد فيها أثر الرسول... ولكن لا شىء سوى الريح حتى إذا بلغ «فدك» من أرض الجزيرة تهالك عند

جذوعها ينازع الموت و قد أيقظت العرب أوثانها. [صفحه ۱۹۹]

القسمت ۳۴

جلست حفصة قرب عائشة كما تجلس الجارية عند سيدتها أو المريد عند استاذه يتعلّم منه أو يراقب حركاته و سكناته ولعلّ الصداقة التى تربط بين الأبوين قد بخّرت تماماً ما تضمره المرأة لضرّتها وأزاحت بعيداً ذلك التنافس المرير فى التفوّق وهاهى الأيام تمرّ لتوحّد بينهما، تضاعفت خلوات عمر بأبى‌بكر وزادت الأواصر بين عائشة و حفصة... و قد جلست المرأتان فيما يشبه الاحتفال بالنصر... أو التفكير لجولة قادمة... كانت عائشة تغالب شعوراً بالتشفى والانتقام وها هو أبوها يحقق أول انتصار على منافسه. منذ سنوات و أبوبكر يفعل المستحيل ليبقى فى الصدارة... فهو صاحب النبى فى الغار و هو الملازم له فى العريش... هو و علىّ فرسا [صفحه ۲۰۰] رهان ولكن ماذا يفعل و علىّ السبّاق فى كل شىء.. ماذا تتذكر عائشة.. «خيبر» «ذات السلاسل».. سورة براءة... لشدّ ما تمقت علياً... انّها لا تستطيع أن تنسى كلماته و هو ينصح النبى بطلاقها يوم «الافك».. وفاطمة التى تغار منها و من اُمّها.. خديجة.. ولكن ما تبغى وهاهو أبوها يمسك بالزعامة والخلافة. امّا علىّ فهو جليس داره وحيد ليس معه من يؤازره أحد... و فاطمة التى لا تفتأ تبكى أباها ليل نهار. عائشة هادئة البال تنعم بالمجد.. لقد كانت زوجة أعظم رجل فى الجزيرة وهاهى اليوم بنت رجل يهابه الجميع.. كانت عائشة مستغرقة فى خيالات الماضى و المستقبل عندما دخل أبوها و كان معه عمر.. بدا أبوبكر مهموماً... لقد جاء أبوسفيان و هو يخشى صولته. قال عمر و قد أدرك ما يجول فى خاطره: -الأمر بسيط يا خليفة رسول‌اللّه.. أنا أعرفه.. اترك ما فى يده من الزكوات.. اننا نحتاج إلى بنى‌اُمية للوقوف بوجه بنى‌هاشم.. نشغل بعضهم ببعض فتصفولك الاُمور. - ارحتنى يا عمر من همّ وبقيت هموم. - أتعنى علياً و أصحابه... و اللّه لأجعلنهم يبايعون.. طائعين أو [صفحه ۲۰۱] كارهين... ولسوف أمضى اليهم بنفسى فان تعلّلوا أحرقت عليهم البيت. - إنّ فيه فاطمة يا عمر. - و إنْ. تداعت الذكريات فى خيال أبى‌بكر. تذكر يوم خطب فاطمة فردّه الرسول. انّه لن يغفر لها ذلك... كما لن يغفر لها ما سببته من آلام لإبنته. كانت عائشة لا تطيق رؤيتها و لا رؤية زوجها.. هو أيضاً كان لايرتاح لفاطمة و كان يشعر بالحسرة لما تقاسيه ابنته. قال عمر و هو يرمق صاحبه بنظرة ذات معنى: - يا له من حديث أصبت به مقتلاً... أنا أيضاً أذكر ان النبى قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث.. ما تركناه صدقة». ابتسم أبوبكر... و كأنه يقول و ما فى وسعى أن أفعل غير ذلك.. امامنا جولات و جولات.. و فاطمة ما تزال تقارم.. قال أبوبكر متوجّساً: - أنا أخشى فاطمة.. انّها ثائرة ولن تسكت.. و كيف تسكت و هى بنت محمد.. و زوج علىّ. - لا تخشَ شيئاً يا صاحبى سينتهى كلّ شىء.. ما هى إلّا امرأة.. و ليس معها أحد. [صفحه ۲۰۲] قال أبوبكر و قد استيقظت فى أعماقه بقايا ضمير: - ماذا لو نسلّمها «فدكاً» و نرتاح من كلّ هذا العناء. - ماذا تقول يا صاحبى اذا أعطيتها فدكاً اليوم فستأتى غدا لتطالب بالخلافة إلى بعلها.. و أنت تعرف ان فدكاً لديها ليست فاكهة أو نخيل و لا أرض انّها الخلافة.. لا لا.. لا تفعل ذلك أبداً. - ألا تخشى غضبها يا أباحفص.. غضبها يعنى غضب اللّه و رسوله.. الجميع يعرف ذلك. - و هذه أيضاً ستمرّ كما تمرّ العاصفة.. سوف نزورها ذات يوم فتصفح عنا و ينتهى كل شىء.. انّك لتصوم و تصلّى و تحجّ و تجاهد فلا تقلق. -اتمنى أن يكون ذلك. كانت عائشة تصغى بصمت إلى حديث أبيها تدرك ما يموج فى أعماقه من رقة تكاد تنقض كل صلابته لولا صاحبه الذى لا يعرف غير الاندفاع كالزوبعة... و لولاه ما وقف أبوها كلّ هذه المواقف... وعائشة تدرك جيداً ان عمر يحلب لأبيها ليأخذ شطراً منه غداً. على هذا تعاهدا و معهما «الجرّاح». عائشة لا ترتاح لتردد أبيها. انّها تريد منه أن يكون قوّياً هذه المرّة... و قد غاب «محمّد» فليندفع ليهزم «علياً» أمام عينى [صفحه ۲۰۳] «فاطمة»، لشدّ ما يسعدها أن ترى فاطمة كسيرة مغلوبة تندب المجد الذى ولّى و العزّ الذى مضى. - لا لا يا عائشة لا تكونى قاسية إلى هذا الحدّ... أرجوك إذا مررت بشجرة محطمة فلا تدوسى ثمارها.. أو حمامة مهيضة الجناح فلا تستلّى السكين لتذبحيها.. أليس هناك مكان للحبّ.. للّه؟ - أتريدنى اشفق على فاطمة.. فاطمة التى استحوذت على قلب زوجى... لا لا لن أغفر لها ذلك.. و على الذى ود طلاقى.. كلّا لن أغفر لهما أبداً. تلاشى الدوىّ وخفتت نداءات الإنسان..

وانتصر النمر المتوثّب فی الأعماق لیطلّ من عینین یکاد بریقهما ینفذ فی الضلوع. [صفحه ۲۰۵]

القسمت ۳۵

فاطمـهٔ حزینهٔ.. وحیدهٔ فی هذه الدنیا الغادرهٔ.. غیّب التراب وجهاً کان یضـیء دنیاها و توقف قلب کان یملأ حیاتها أملاً.... رحلت أمّها وهی بعـد صبیّهٔ.. وهاهی تفقد أباها وهی فی عمر الربیع.. فقدت الأشـیاء شـفافیتها و بدت عاریهٔ مقرفهٔ. کانت تنظر إلی الجزیرهٔ فتراها خضـراء.. خضـراء. تنظر بعینی محمد فتری البراعم تتفتح و الریاحین تفوح بالعطر.. والسماء تزخر بأجنحهٔ الملائکهٔ مثنی وثلاث و رباع و کلمـات جبریـل تملأ الفضـاء. و لمّا أغمض الأب عینیه انطفأت کلّ الشـموع.. انکفأت فوق صـحون الحنّاء.. ذبلت الریاحین و غادر الربیع الجزیرهٔ... واستیقظت الاصـنام... فتحت عیونها الحجریهٔ.. وانبعث خوار «عجل» فی «فدک». العاصفهٔ تهبّ عنیفهٔ تدمّر کلّ شیء.. ولو مرّت علی النجوم [صفحه ۲۰۶] لأطفأتها أو علی شـجرهٔ زیتون لاجتثتها من فوق الأرض... و فاطمهٔ وحیدهٔ.. لیس معها أحد سوی رجلها و قد أغمد «ذا الفقار» بعد ان وضعت الحرب أوزارها.. و سیّد الرجال یأبی أن تکون له فی الفتنهٔ سیف.. سلاحه الصبر؛ و الصبر سلاـح الأنبیـاء. لیس فی منزل فاطمـهٔ سـوی صـبیین ینتظران عـودهٔ جـدّهما.. لیس فی منزل فاطمـهٔ سـوی بنت صـغیرهٔ غارقـهٔ فی حزن سرمـدی... بنت اسـمها «زینب»؛ لیس فی منزل فاطمهٔ أحد إلّا المستضـعفون فبدا کقلعهٔ مهجورهٔ تحمل آثاراً لجبریل. سـتهبّ العاصـفهٔ اعصاراً فیه نار و قد لاذ الخائفون فئراناً مذعورهٔ فی جحورها.. ولیس هناک من سلاح إلّا الصبر... و الصبر له طعم کالحنظل لایعرفه إلّا المظلومون. بـدا علیّ ذلـک الیوم کأسـد جریـح.. أسـد مثقل بالقیود و السـلاسل.. و أصـعب ما یواجه الرجل من ضـیم أن یری امرأته مقهورهٔ وحیدهٔ و هو موثق الأیدی... کان علیّ یدرک ما یدور فی الخفاء... شمّ منذ أمد بعید رائحهٔ المؤامرهٔ و لم یکن فی مقدوره أن یفعل شیئاً... کانت العناکب تحوک شباکها لیل نهار. والسماء تکتظّ بقطع السحب السوداء، والقمر فی المحاق.. هبّت العاصفهٔ، وهتف ابن صـهاک، وقنفذ ینظر بعینین فیهما بریق شیطانی: [صفحه ۲۰۷] - یا علی اخرج و بایع کما بایع الناس. لاذ الأسد بالصـمت، و رفع ابن صـهاک صوته بعصبیـهٔ: - لتخرجنّ أو لأحرقن الـدار. هتف رجل مسـتنکراً: - إن فیها فاطمـهٔ. أجاب ابن صـهاک. - و إن!. هتفت فاطمهٔ بغضب: - سـرعان ما أغرتم علی أهل البیت. رکل قنفذ الباب بوحشـیهٔ... وظهرت بنت محمّد فی قبضـتها لواء المقاومهٔ.. وجهها الأزهر مضـمخ بعبیر النبوّات و کان حسن و حسـین ینظران بدهشـهٔ إلی رجال کانوا بالأمس یبتسـمون لهما و قد جاءوا الیوم یکشّـرون عن أنیاب کالـذئاب. - أین أنت یا جـدّاه.. هلمّ لتری ما یفعل أصـحابک. هتفت فاطمـهٔ بغضب الأنبیاء: - اخلوا الدار.. و خلّوا عن ابن عمی.. ثم أردفت و هی تستنجد بالسماء: - لئن لم تخلّوا عنه لانشرن شعری و لأصرخن إلی اللّه. [صفحه ۲۰۸] هتف سلمان وقد رأی العذاب قاب قوسین أو أدنی: - یا سیدتی! إن اللّه بعث أباک رحمهٔ. والتفت إلی عمر: - خلوا عن علیّ فقد اقسم ألّا یخرج حتی یجمع القرآن. انسـحب الرجال أمام فتاهٔ نحیلـهٔ الجسم کنخلهٔ متواضـعهٔ.. لکنّها عمیقهٔ الجذور. ما تزال رایهٔ المقاومهٔ ترفرف فوق منزل فاطمهٔ کطیف من رؤی النبوّات. وقف التاریـخ مشدوهاً قبالهٔ منزل صـغیر یضمّ فتاهٔ نحیلهٔ القوام. وقف التاریخ خاشـعاً أمام «فاطمهٔ».. أمام فتاهٔ عجیبـهٔ لم یرَ مثلها صـفاءً لکأنها تنتمی إلی عالم آخر لایمت إلی عالم التراب بوشـیجهٔ. قبس من نور یکاد ینفـذ من أهاب جسد نحیل لکأن الملاک یوم ولـدت تضـرّع إلی ربّه: - یا ربِّ اجعلها ثابتـهٔ کالجبل، مبارکـهٔ کالنخیل، طاهرهٔ کقطرات النـدی، سیّدهٔ کحوریـهٔ. وقف التاریـخ مـذهولاً أمام فاطمـهٔ.. غیمهٔ بیضاء تختزن الرعود... فهذه الفتاهٔ التی تقف فی محرابها تتبتل إلی السـماء حتی تکاد تفتت التراب لتصـبح کوکباً درّیا.. تتسرب من بین الطین عائدهٔ إلی عالم النور. [صفحه ۲۰۹] وقف التاریخ خاشعا امام فتاهٔ تقضی جل وقتها تتأمل ملکوت السماء.. ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانک... فتاهٔ تنطوی ضلوعها علی قلب تضیع فیه الصحاری. وقف التاریخ امام سیدهٔ عظیمهٔ هبت بوجه العاصفهٔ؛ ولتکن «فدک» ارضا للصراع. [صفحه ۲۱۱]

القسمت ۳۶

ما أصغر فدكاً فوق الأرض... وفى الجغرافيا. و ما أوسعها فى خارطة التاريخ. هبّ السامرىّ ليجثو أمام «العجل» وفتحت الأوثان العربية عيوناً حجرية تحدّق ببلاهة... وبرقت عينا «الاسخريوطى» بالغدر و هو يدلّ على ابن مريم... و همّ بنواسرائيل بهارون، وفرّت الفراشات إلى مخابئها و قد عوت ريح الزمهرير كذئاب مجنونة. نهضت فاطمة بوجه العاصفة تقول لا: - لا تقتلوا يوسف.. و لا تلقوه فى غيابت الجبّ. - لا- تغدروا بابن العذراء.. لا- تعبدوا العجل من دون الرحمن.. لا تقتلوا هارون. - دعوا الفراشات تسبح فى غمرة النور.. لا تطفئوا الشموع.. لا تتقلوا الأرض بالآثام.. دعوا هابيل يرعى ماشيته بسلام. [صفحه ۲۱۲] وقفت فاطمة تنظر إلى الأفق البعيد المدلهمّ بالخطوب و الحوادث وراحت تسرج الشموع فى مهب العواصف علّها تضىء الصحراء والتاريخ. معركة وشيكة ستندلع.. تدمّر كلّ شىء.. معركة عجيبة اسلحتها الصبر.. الصمت الرفض... كان على علىّ أن يرمى «ذالفقار» جانباً.. أن يصرخ بالصمت.. الصمت المدوّى و كان على فاطمة أن تتكلّم بعد أن طوت الماضى متبتلة فى المحراب. نهضت فاطمة. غادرت محراب الصمت لتقول كلمتها فى الذين يسرقون «فدك» فى غمرة الليل حتى لا يسرقوا التاريخ و المستقبل فى وضح النهار.. جاءت فاطمة تطالب بالميراث و كانت جذوع «فدك» سلاحها الوحيد: - اعطنى ميراثى من أبى رسولاللّه. قال أبوبكر: - سمعت أباك يقول: نحن معاشر الأنبياء لانورّث. - كيف و قد ورث سليمان داود.. وقال زكريا: يرثنى ويرث من آل يعقوب؟!! - أنا سمعت رسولاللّه يقول نحنُ الأنبياء لا نورّث وهاهى [صفحه ۲۱۳] عائشة وحفصة تشهدان على ذلك. - سبحان اللّه ما كان أبى عن كتاب اللّه صادفاً.. و لا لأحكامه مخالفاً.. اشتعلت ثورة فى قلب ابن فاطمة و كان صبيّاً جذب رداء رجل ينازع امّه الميراث. هتف السبط: - انزل عن منبر أبى و اذهب إلى منبر أبيك. سأل الرجل بدهاء: - من علّمك أن تقول هذا؟ لاذ الصبى بالصمت. فعاد الرجل يكرّر مقالة ما أنزل اللّه بها من سلطان. قالت فاطمة و هى تضمّ ريحانة الرسول و تحدّق فى الذين اغتصبوا ميراث الأنبياء: - كلّا بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل واللّه المستعان على ما تصفون. غادرت فاطمة المكان.. و تناثرت أسئلة.. علامات استفهام، فتمتم الخليفة بأسىً أمام صاحبه: [صفحه ۲۱۴] - أما كان الأحرى أن نهبها فدكاً... أنا أخشى ابنة محمد. أجاب أبوحفص مشجّعاً: - لا تخف يا صاحبى... غبرة و تنجلى و ما هى إلّا جولة و ينتهى كلّ شىء... و كأن شيئاً لم يكن... و ربت على كتفه و قد عرف كيف يتغلغل إلى قلبه: - أقم الصلاة... و آت الزكاة... ان الحسنات يذهبن السيئات.. و ما يفعل ذنب واحد فى حسنات كثيرة. أضاءت الابتسامة وجهه، فقال: - كربة فرجّتها يا عمر.. هتف الخليفة و قد شحذ العزم كلمات تدعو بالويل والثبور... - ألا لو شئت أن أقول لقلت، و لو تكلمت لبحت و انى ساكت ما تركت... يستعينون بالصبية و يستنهضون النساء.. و انى لستُ كاشفاً قناعاً و لا باسطاً ذراعاً و لا لساناً، إلّا من استحق ذلك. استنكرت اُمسلمة و كانت امرأة على خير: - أمثل هذا يُقال لفاطمة!! وهى الحوراء و عديلة مريم.. ربيت فى أحضان الأنبياء و تداولتها أيدى الملائكة.. أتزعم ان رسولاللّه حرّم عليها ميراثه؟! عادت فاطمة إلى منزلها.. و قد جثم الحزن على بيوت المدينة [صفحه ۲۱۵] كطائر مهيض الجناح. أوت فاطمة إلى المحراب تستمد من السماء الروح.. الحياة.. النور؛ تريد أن تتخفف من عناصر الأرض.. الأرض المثقلة بالدماء الآدمية... تريد أن تنتمى إلى عالم آخر لانكد فيه و لا عناء... تنشد بيتاً من قصب لا تعب فيه و لا نصب.. ما تزال تبحث عن اُمّها.. أوت فاطمة تلك الليلة إلى المحراب، وقالت: - ربِّ إبنِ لى عندك بيتاً فى الجنّة و نجّنى. هوّمت عيناها.. فانبثق شلّال من نور النبوّات. هتفت بشوق: - يا أبتاه، يا رسولاللّه انقطعت عنّا السماء. خفقت أجنحة الملائكة.. رفرفت كفراشات من نور سماوىّ.. ولجت فاطمة الملكوت راحت تخطر فى عوالم النور.. الملائكة صفوف والحدائق غنّاء... و الأنهار تجرى متدفقة تدفّق الحياة.. وحوريات يخطرن بين الأشجار الخالدة. قالت احداهن لفاطمة: - مرحباً بحورية الأرض... فاطمة تخطر فى عالم شفّاف.. عالم ملوّن. أشارت فاطمة إلى نهر يطّرد.. تتدافع أمواجه البيضاء.. تدور حول قصر تحفّه الأشجار [صفحه ۲۱۶] ويغمره النور من كلّ مكان. قالت حورية: - هذا الفردوس.. وهنا يسكن سيّد ولد آدم محمد. - أين أبى؟ انبثق شلّال من نور محمّد... كان يرتدى ثياباً من سندس بلون الربيع.. ركضت فاطمة.. ضاعت فى صدره الرحب.. شعرت بأنها تعود إلى أحضان أمّها.. إلى عالم تنتمى اليه. - انظرى إلى ما أعدّ اللّه لك.. لقد انتهت آلامك و آن لك أن تستريحى.. انظرى إلى زهدك كيف أصبح جنّة عرضها كعرض السماوات و إلى فراش الليف

فكيف صار سريراً من حرير، و إلى جوعك و عريك كيف أضحى فاكهة و قطوفاً دانية واستبرق وحريرا.. وانظرى إلى دموعك اضحت أنهاراً من لبن.. ومن عسل تجرى، و إلى حجرتك أمست قصراً... و إلى ظلمات الأرض صارت شلالات من نور يتدفّق.. انتبهت فاطمة.. عادت إلى الأرض لتودّعها.. لتقول كلمتها قبل الرحيل الأبدى... عادت لتبنى بيت الأحزان... تبكى الأرض المثقلة بالهم... بالدموع و بالألم. [صفحه ۲۱۷]

القسمت ۳۷

لفّت فاطمة خمارها، واشتملت بردائها و الازار و نهضت بأمر اللّه. مابين دار فاطمة و المسجد خطوات، قطعتها ثابتة الخطى لكأنها محمّد و عاد يصحح مسار الإنسان من جديد.. يقوده إلى منابع النور والخلود. جاءت فاطمة تحفها نسوة و بنات دخلت المسجد.. لتقول كلمتها للأُمّة و التاريخ. و أنّت من وراء حجاب... انّهُ هى أنّهُ هابيل قبل ان يموت... فيها عذابات «آسية»... و حزن «مريم». ولوعة «يوكابد»... بكى المهاجرون و بكى الأنصار واهتزّ قلب كالصخر ولان. قالت بنت آخر الأنبياء وقرينة مؤسس البلاغة فى العرب: - الحمد للّه على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم والثناء بما قدّم [صفحه ۲۱۸] من عموم نعم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها و تمام منن أولاها، جمّ عن الاحصاء عددها، ونأى من الجزاء أمدها و تفاوت عن الادراك أبدها. وأشهد ان لا إله الّا اللّه وحده لا شريك له، كلمة جعل الاخلاص تأويلها، و ضمن القلوب موصولها، و أنار فى التفكير معقولها، الممتنع عن الأبصار رؤيته، و من الألسن صفته و من الأوهام كيفيته، ابتدع الأشياء لا من شىء كان قبلها، و أنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كوّنها بقدرته و ذرأها بمشيئته. وأشهد ان أبى محمّداً عبده و رسوله، اختاره قبل أن أرسله، وسمّاه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، و بستر الأهاويل مصونة، و بنهاية العدم مقرونة. ابتعثه اللّه اتماماً لأمره و عزيمة على امضاء حكمه و انفاذاً لمقادير حتمه، فرأى الأُمم فرقاً فى أديانها عكفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة للّه مع عرفانها، فأنار اللّه بأبى محمّد ظُلمتها و كشف عن القلوب بهمها و جلّى عن الأبصار غممها... ثم قبضه اللّه اليه قبض رأفة و اختيار و رغبة و ايثار. محمد من تعب هذه الدار فى راحة، قد خصّ بالملائكة الأبرار، و رضوان الربّ الغفار، و مجاورة الملك الجبّار، صلّى اللّه على أبى وأمينه و خيرته من الخلق و صفيّه والسّلام عليه و رحمة اللّه و بركاته. [صفحه ۲۱۹] وقف التاريخ مذهولاً لكلمات سماوية لكأنها حورية هبطت الأرض تحمل لها قبساً من نجوم السماء. سكتت فاطمة هنيهةً واستجمعت قوّتها لتهزّ النخلة علّها تساقط رطباً جنيا: أيّها الناس، اعلموا أنّى فاطمة و أبىمحمد أقول عوداً و بدواً، و لا أقول ما أقول غلطاً، و لا أفعل ما أفعل شططاً، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تعزوه و تعرفوه تجدوه أبى من دون نسائكم، و أخا ابن عمى دون رجالكم، ولنعم المعزّى إليه، فبلغ الرسالة صادعاً بالنذارة ماثلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً ثبجهم، آخذاً بأكظامهم داعياً إلى سبيل ربّه بالحكمة و الموعظة الحسنة يجفّ الأصنام و ينكث الهام، حتى انهزم الجمع و ولّوا الدبر، حتى تفرى الليل عن صبحه، وأسفر الحقّ عن محضه و نطق زعيم الدين، و خرست شقاشق الشياطين. و كنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، و نهزة الطامع، و قبسة العجلان، موطئ الأقدام، تشربون الطرق، و تفتاتون القدّ، أذلّة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم اللّه تبارك و تعالى بمحمّد صلى اللّه عليه و آله بعد اللتيا والتى. ودوّت صرختها توقظ الضمير الذى أخلد إلى الأرض: [صفحه ۲۲۰] أيها المسلمون: أأغلب على إرثى! يا ابن أبىقحافة، أفى كتاب اللّه ترث أباك و لا أرث أبى، لقد جئت شيئاً فريّاً، أفعلى عمد تركتم كتاب اللّه ونبذتموه وراء ظهوركم، إذ يقول:(وورث سليمان داوود). و قال فى ما اقتص من خبر يحيى بن زكريا إذ قال: (فهب لى من لدنك ولياً يرثنى ويرث من آل يعقوب). و قال: (و أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب اللّه). و قال: (يوصيكم اللّه فى أولادكم للذكر مثل حظّ الانثيين). و قال: (إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقّاً على المتّقين). ۀ وزعمتم أن لا حظوة لى و لا إرث من أبى و لا رحم بيننا، أفخصّكم اللّه بآية أخرج أبى منها؟! أم هل تقولون: إنّا أهل ملّتين لا يتوارثان أولست أنا و أبى من أهل ملّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن

و عمومه من أبى و ابن عمى. فدونكها مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم اللّه، والزعيم محمّد، و الموعد القيامة، و عند الساعة يخسر المبطلون. و لا ينفعكم إذ تندمون، ولكلّ نبأ مستقر، و سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه و يحلّ عليه عذاب مقيم. [صفحه ۲۲۱] لقد مات الضمير... دفنه رهط من المدينة فى أرض فدك، فراحت البتول تحذّرهم أيام اللّه: فدونكموها فاحتقبوها، دبرة الظهر، نقبة الخفّ، باقية العار، موسومة بغضب الجبّار، و شنار الأبد، موصولة بنار اللّه الموقدة التى تطّلع على الأفئدة، فبعين اللّه ما تفعلون، وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون، وأنا ابنة نذير لكم بين يدى عذاب شديد فاعملوا إنّا عاملون، وانتظروا إنّا منتظرون. غادرت الزهراء المسجد وقد زلزلت الأرض زلزالها و صرخ رجل غصب ميراث الأنبياء: - اقيلونى بيعتى... و نظر الرجال الى حيث كشفت فاطمة آفاق المستقبل فإذا السحب الحمراء مخزونة بالرعود و الأرض ملغومة بالزلازل و أنهار من دمّ، و جماجم وضحايا. وفرّ الإنسان.. ألقى أمانة تهيبت السماوات والأرض عن حمْلها و حمَلها الإنسان انه كان ظلوماً جهولا. [صفحه ۲۲۳]

القسمت ۳۸

كما تذوى الشموع فى قلب الظلمات... كما تذوب و تسيل دموع التوهج.. كانت «فاطمة» تذوى.. قوامها يزداد نحولاً... قرّرت فاطمة الصمت و ان تصوم كما صامت مريم من قبل... و أدرك علىّ ان الرحيل و شيك و ان «البيت» الذى بناه من جريد النخل «بالبقيع» سيكون ملجأً لفاطمة... بيتاً للأحزان و الآلام... سيشهد ذلك البيت انطفاء الشموع.. رحيل النجوم... و مصرع شمس أضاءت حياته مدّت بالدفء.. النور.. الأمل. سكتت فاطمة. والذين اشتكوا من بكائها لم يعودوا يسمعون انيناً ينبعث من أعماق قلب كسير. لم يعد أحد يسمع نشيجها الّا الذين يمرّون ب«البقيع».. غابت فاطمة كما تغيب النجوم خلف السحب الدكناء. غابت فاطمة كفراشة تبحث عن الشمس... عن ربيع مضى تطارده رياح شتائية. [صفحه ۲۲۴] غابت فاطمة.. لم يعد أحد يسمع بها.. انها تذوى وحيدة فى بيت من جريد النخيل غادرته الحياة.. الملائكة لا تريد حياة الأرض، والحوريات لا تعيش فى عالم التراب.. والذين اكتشفوا السماء لن يطيقوا الانتظار... و عندما يدرك الأنبياء ان مواعظهم لاتجد آذاناً واعية سيتحدّثون بلغة الصمت... فى بيت الأحزان كانت فاطمة تذوب كشمعة متوهّجة تحرق نفسها لتبعث النور والدفء من حولها... فاطمة تتحدّث بلغة الشموع لغة لا يسبر غورها إلّا فراشات النور. ها هى فاطمة تصرخ بصمت: - بدوىّ صمتى انا ديكم.. ثورتى تنطوى فى حزنى.. و رفضى كامن فى دموعى. و هذا كلّ ما أملكه من لغة... علّكم تفهمون خطابى. انا مظلومة يا ربىّ... حرّرنى من هؤلاء. ذوت الشمعة... أحرقت نفسها. لم يبق منها إلّا حلقات من نور... آن لها أن تنطفئ. الوجه يشبه قمراً أنهكته ليلة شتائية طويلة بدا مصفرّاً... و كان الصوت واهناً تحمله أمواج حزينة... والدموع غزيرة كمطر سماء غاضبة... [صفحه ۲۲۵] رتبت «اسماء» فراش سيدتها و سيّدة كلّ امرأة فى التاريخ... لم يعد الجسد الواهن قادراً على تحمل روح عظيمة تريد الانطلاق إلى عوالم لانهائية. وجاء الشيخان يريدان عيادتها و قد أوجسا خيفة... فاطمة غاضبة... ينشدان رضاها.. رضا السماء و الأرض والتاريخ. هكذا قال محمّد من قبل ولكن انّى لهما ذلك و فاطمة تكاد تميز من الغيظ.. قال عمر لعلىّ و هو يحاوره: - يا أباالحسن ان أبابكر شيخ رقيق القلب و كان مع رسول‌اللّه فى الغار.. و قد أتيناها غير هذه المرّة فلم تأذن لنا.. فاستأذن لنا منها ماذا يقول أبوحفص كيف يفكّر هذان الرجلان.. نهض علىّ جلس عند فاطمة و قال مستأذناً: - يا بنت رسول‌اللّه قد كان من هذين الرجلين ما قد رأيت وقد تردّدا مراراً ورددتهما.. وقد جاءا الآن يسألانى الأذن. - و اللّه لا أُكلّمهما حتى ألقى أبى. - يا بنت محمّد.. انى قد ضمنت لهما الأُذن. [صفحه ۲۲۶] - امّا وقد ضمنت لهما شيئاً فلا اخالفك. شعر أبوبكر بالأمل يراود قلبه و نظر إلى صاحبه بامتنان. - السلام عليك يا بنت رسول‌اللّه. -... - إنّا جئنا نسألك العفو و قد أقررنا بالإساءة. -... - ارضى عنا رضى اللّه عنك. -... - لا تحوّلى وجهك عنّا.. انّا نطمع أن يغفر لنا ربّنا... قالت فاطمة كلمتها الأخيرة: - ان كنتما صادقين فاخبرانى عمّا أسألكما. - سلى يا بنت رسول‌اللّه. - نشدتكما باللّه هل سمعتما أبى يقول: فاطمة بضعة منى فمن آذاها فقد آذانى؟ - اللّهم نعم. رفعت الزهراء يديها امام محكمة السماء: - اللّهم اشهد فانّهما قد آذيانى.. وأنى اشكوهما اليك. انتفض أبوبكر. ودّلو تبلعه الأرض. [صفحه ۲۲۷] - يا ويلى..

يا ويلى.. ليتنى لم اتّخذك خليلا. لقد ضللتنى عن الذكر بعد إذ جاءنى. أجاب صاحبه و كان فضّاً غليظ القلب: - لا تجزع يا خليفة الرسول لغضب امرأة. هتف بمرارة. - اقيلونى.. فقد ترضى فاطمة. رمقه عمر بعينين متنمّرتين: - ماذا تقول يا خليفة الرسول... أترضى فاطمة و تغضب عائشة... والأقربون أولى بالمعروف. ولقد قضى الأمر. وقف أبوبكر عاجزاً عن صدّ الرياح وهى تعدو مجنونة تهزّ شجرة غرسها رسول السماء تريد أن تجتثها من فوق الأرض. وقف الخليفة عاجزاً عن توجيه قافلة التاريخ الجهة التى أرادها سيّد التاريخ وهاهو يتّخذ طريقه فى الصحراء سربا. و تمرّ الأيام و الرياح المجنونة التى تريد اجتثات شجرة غرستها السماء فى الأرض... تكاد تأتى على شمعة تسيل دموعها قطرات حزينة... ولسوف تنطفئ بعد حين. [صفحه ۲۲۹]

القسمت ۳۹

هوت الشمس.. اشتعلت حمرتها فى الأُفق كجراح الشهداء... و شيئاً فشيئا زحفت كتائب المساء و لملمت الشمس خيوطها و رحلت بعيداً.. و ظهرت نجيمات تومض بأمل و فاطمة مشغولة دبّت فى جسدها عروق الحياة.. قالت لاسماء بسكينة: - اسكبى لى غسلاً. فرحت اسماء و هى ترى سيدّتها تقبل على الحياة تخطو نحو العافية. اغتسلت فاطمة... تطهّرت من أدران الأرض وارتدت ثياباً جدداً.. و تعطّرت بكافور كان جبريل قد أهداه إلى أبيها... قالت فاطمة وقد شاعت ابتسامة فى وجهها. -افرشى لى وسط البيت... فاطمة تستعد للرحيل... لم يكن فى البيت أحد سوى اسماء... [صفحه ۲۳۰] اسماء تراقب فتاة تشعّ نوراً كلما اشتدت ظلمة الأرض. قالت فاطمة قبل أن ترقد: - يا أسماء أنا استقبح ما يفعل بالمرأة بعد الموت يطرح عليها ثوب فيصفها للناظر... ألا تصنعين لى شيئاً يسترنى. أجابت اسماء تطيب خاطرها: - كنت بأرض الحبشة فرأيتهم يصنعون شيئاً فان أعجبك صنعت لك مثله. هزّت فاطمة رأسها موافقة.. و راحت تراقب اسماء و قد تدفّقت ينابيع الأمل فى قلبها الكسير. أحضرت السماء سريراً فأكبّته على وجهه ثم جاءت بجريد النخل و أوصلت بين قوائمه و شدّتها بحبال من الليف... ثم ألقت عليه غطاءً. بان الرضا فى وجه حورية الأرض وابتسمت: - نعم اصنعى لى مثله.. ما أجمل هذا يا اسماء... استرينى سترك اللّه. تمدّدت فاطمة فى فراشها ثم وضعت يدها تحت خدّها.. أغمضت عينيها ونامت... و كانت اسماء قد سمعتها تتمتم بصوت ملائكى: - السلام على جبريل. الهى فى رضوانك و جوارك ودارك دار السلام. [صفحه ۲۳۱] فاحت فى الفضاء رائحة الجنّة.. كانت اسماء تنظر إلى وجه ملائكى لسيّدة ودّعت الأرض فى عنفوان الشباب زهرة ذابلة فى قلب الربيع.. حمامة بيضاء كسيرة الجناح.. حوريّة شهيدة. وجاء علىّ وقد بدا مكسور الظهر كما لو انّه يحمل جبالاً من الحزن و بيد مرتعشة ناولته اسماء رقعة كانت فاطمة قد كتبتها قبل أن تغفو: تجمعت الدموع فى عينىّ علىّ كغيوم ممطرة و غرقت الكلمات كحمائم تتقاذفها الأمواج. - بسم اللّه الرحمن الرحيم.. هذا ما أوصت به فاطمة بنت رسول‌اللّه صلى اللّه عليه و آله.. وهى تشهد أن لا إله إلّا اللّه وأن محمداً عبده و رسوله.. و ان الجنّة حقّ والنار حقّ و ان الساعة آتية لا ريب فيها و ان اللّه يبعث مَن فى القبور... يا علىّ أنا فاطمة بنت محمّد زوجنى اللّه منك لأكون لك فى الدنيا و الآخرة.. حنطنى و غسلنى وكفّنى وصلِّ علىّ وادفنّى بالليل و لا تُعلم أحداً، و أستودعك اللّه إلى يوم القيامة. وقف علىّ مذهولاً، كانت فاطمة سكناً.. ملاذاً و كانت عزاءه الوحيد.. وهاهى تودّعه.. تتركه وحيداً فى مهب اعصار فيه نار. [صفحه ۲۳۲] وقف علىّ ينوء بجبال الحزن بركام الغيوم.. ولقد توقف القلب الذى كان يتدفق حبّاً وانطوت صفحة كانت مشرقة وانطفأ شعاع كان يضىء طريقه فى الحياة... وانكسر «ذوالفقار»... و تمزّقت أوتار الفرح.. الظلام يغمر الأرض و النجوم تشتدّ بريقاً كعيون تتطلّع إلى كوكب تهشم فوق الأرض. وقف التاريخ حائراً، وقد اشتدّت ظلمة الليل والحزن يجوس المدينة كغيمة تبكى بصمت، وعواء ذئاب بعيدة تنذر برحيل السلام. هاهى الحورية تترك الأرض لأهل الأرض و تعود إلى السماء. وجاء أهل المدينة يوارونها الثرى فقال لهم أبوذر: - انصرفوا فقد أُخّر إخراجها. انصرف الناس فيما ظلّ التاريخ حائراً يترقّب. نامت المدينة.. اغمضت اجفاناً مثقلة بالحزن و الدموع... بدت يثرب تلك الليلة راهبة تبكى بصمت. [صفحه ۲۳۳]

القسمت ۴۰

فاطمـة نائمـة واضـعة يدها تحت خدّها... وقد غادرت الروح العظيمة أهاب جسد نحيل ينتظر عودته إلى عناصـر التراب فقد ناء بحمل الروح و آن له ان يستريح. لم يكن فى حجرة فاطمة أحد سوى صبيين و بنت ورجال صدقوا. كان التاريخ يصغى إلى تمتمات صلاة و بكاء يحكى نشيج الميازيب فى مواسم المطر. شـعر التاريخ بالاعياء وهوّمت عيناه و هو ينتظر فى الظلام.. اغمض عينيه فانسلّت فاطمة كطيف مضـىء.. ولمّـا استيقـظ لم يجـد شـيئاً ووجـد عليـاً واقفـاً ينفض عن نفسه الغبـار و يهمس فى أُذن الرسول: – السـلام عليك يا رسول‌اللّه عنى وعن ابنتك النازلـة و السـريعة [صـفحه ۲۳۴] اللحـاق بـك، قلّ يا رسول عن صـفيتك صبرى ورق عنها تجلّـدى... امّا حزنى فسـرمد، و امّا ليلى فمسـهّد، إلى ان يختار اللّه لى دارك التى انها بها مقيم، وسـتنبئك ابنتك بتظافر امّتك على هضمها، فأحفها السؤال و اسـتخبرها الحال، هذا و لم يطل العهد و لم يخلُ منك الذكر والسـلام عليكما سـلام مودّع لا قالٍ و لا سـئم، فان انصرف فلا عن ملالة، و ان أقم فلا عن سوء ظنٍّ بما وعد اللّه الصابرين. ونهض علىّ يواجه الدنيا وحيداً، يشـعر بالغربة فلقد وارى بيده آماله و قلبه و سـيفه ذاالفقار... وتمتم بحسـرة: – فقـدُ الأحبـة غربـة. وقف التاريـخ يقلّب كفيه على ما انفق من وقت وهاهى فاطمـة ترحل بصـمت لا‌يعرف أين مسـتقرّها. مـاذا سـيقول للعالم. انّه لايعرف عن هـذه الفتاة شـيئاً... فقائل يقول انّها جاءت إلى الـدنيا قبل أن يهبط جبريل بخمس سـنين، وقائل يقول بل بعـد جبريل بخمس سـنين، وآخر يقول وهو ثالث القائلين.. انّها جاءت مع جبريل ثم مكثت فى الأرض عدد سـنين فلما غادر جبريل الأرض أخذها معه. لكأنها حورية جاءت إلى الدنيا ثم عادت إلى الجنّة تخطر بين الأشجار الخالدة ليبقى طيفها فى الأرض مادامت السماوات. [صفحه ۲۳۵] استيقظت المدينة تبحث عن فاطمة وقد رحلت فاطمة... وجاء الشيخان يبحثان فى الأرض و كان أحـدهما يتوعـد... حتّى همّ بنبش رفاة المقابر وكان التاريخ يجوس خلال البقيع يقلّب كفيه حائراً لا يدرى أين فاطمة.. شمّ رائحـة الجنّة فى بقعـة بالبقيع.. فقال: هنا ترقـد فاطمـة.. وفاحت رائحـة الفردوس حيث يرقـد محمّد بسـلام.. فقال: بل هاهنا ورأى ملائكـة تهبط فى حجرتها فأشار بيده المعروقة وهتف: بل هناك. وحار الشـيخ ماذا يقول للقوافل المسافرة كلّما مرّت امّة سألته عن قبر لفاطمة فيقلّب كفّاً معروقة و يقول: – لا أدرى. و تمضـى القوافل تسخر من شيخ يفتح عينيه على كلّ شىء إلّا على فاطمة.. و لمّا ضاق الشـيخ ذرعاً بالقوافل عاد إلى حجرة فاطمـة يعتـذر اليها.. اشـعل شـمعة وراح يراقبها.. كانت الشـمعة تتوهّج.. تـذوب.. تسـيل دموعها بصمت.. و شيئاً فشيئاً كانت تذوى ويخبو نورها حتى انطفأت وساد الظلام.

تعريف المركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِـدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِـكُمْ فى سَبيـلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُـونَ (التوبـة/۴۱). قـالَ الإمـامُ علىّ ُبنُ موسَـى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْـداً أحْيَـا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَـنـادِرُ البِحـار – فى تلخيص بحـار الأنـوار، للعلاّمـة فيض الاسـلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشـّيـخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج ۱/ ص۳۰۷). مؤسّس مُجتمَع "القائميّة "الثّقافىّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشـهيد آيـة الله "الشـمس آباذى – "رَحِمَهُ اللهُ – كان أحـداً من جَهابذة هـذه المدينة، الـذى قـدِ اشـتهَرَ بشَـغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صـلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسـيَّما بحضـرة الإمام علىّ بن موسَـى الرِّضا (عليه السّـلام) و بِساحة صـاحِب الزّمـان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهـذا أسّـس مع نظره و درايته، فى سَـنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسـةً و طريقـةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بـل تُـتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كـلَّ يوم. مركز "القائميّة "للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمـامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَـدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّـى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة... الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما،

تعزيز دوافع الشـّباب و عموم الناس إلى التـّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّـة، تخليف المطالب النـّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة –فى المحاميل (=الهواتف المنقولـة) و الحواسـيب (=الأجهزة الكمبيوتريّـة)، تمهيـد أرضـيّةٍ واسـعةٍ جامعـةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت– عليهم السّـلام – بباعث نشـر المعارف، خدمات للمحققين و الطـّلاّب، توسـعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسـلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسـهيل رفع الإبهام و الشـّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و... – مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشـرها و بثـّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنـّه يُمكِن تسـريعُ إبراز المَرافِق و التسـهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشـرِ الثـّقافـةِ الاسـلاميّة و الإيرانيّـة – فى أنحـاء العالَم – مِن جـهـةٍ أُخرَى. – من الأنشـطة الواسـعة للمركز: الف) طبع و نشـر عشـراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشـرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول ج) إنتاج المَعارض ثـّلاثيّـةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكـة و... الأماكن الدينيّـة، السـياحيّة و... د) إبداع الموقع الانترنتى" القائميّـة "www.Ghaemiyeh.com و عـدّة مَواقِعَ أُخـرَ ه) إنتـاج المُنتَجـات العرضـيّة، الخَطابـات و... للعرض فى القنوات القمريّـة و) الإطلاق و الـدَّعم العلمىّ لنظام إجابـة الأسـئلة الشـرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴) ز) ترسـيم النظـام التلقائىّ و اليـدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصـيرة SMS ح) التعـاون الفخرىّ مع عشـراتِ مراكزَ طبيعيّـة و اعتباريّـة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّـة، الجوامع، الأماكن الدينيّـة كمسـجد جَمكرانَ و... ط) إقامـة المؤتمَرات، و تنفيذ مشـروع" مـا قبـلَ المدرسـة "الخـاصّ بالأطفال و الأحـداث المُشارِكين فى الجلسـة ى) إقامـة دورات تعليميّـة عموميّـة و دورات تربية المربّى (حضـوراً و افتراضـاً) طيلـة السَّنـَة المكتـب الرّئيسـىّ: إيران/أصـبهان/ شـارع"مسـجد سـيّد/ "مـا بيـنَ شـارع"پنـج رَمَضـان" ومُفترَق"وفائى/"بنايـة"القائميّة "تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّـة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريـة القمريّـة) رقـم التسـجيل: ۲۳۷۳ الهويّة الوطنيّـة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶ الموقـع: www.ghaemiyeh.com البريـد الالـكترونى: Info@ghaemiyeh.com المَتجَر الانـترنتى: www.eslamshop.com الهـاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱) الفـاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱) مكتـب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱) التـّجاريّـة و المَبيعـات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹ امور المسـتخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱) ملاحَظـة هامّـة: الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شـَعبيّـة، تبرّعيّـة، غير حكوميّـة، و غير ربحيّـة، اقتـُنِيَت باهتمـام جمع من الخيّرين؛ لكنـّها لا تـُوافِى الحجمَ المتزايـد و المتـّسِعَ للامور الدّينيّـة و العلميّـة الحاليّـة و مشاريع التوسـعة الثـّقافيّـة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسـمَّى بالقائميّة) و مع ذلـك، يرجو مِن جـانب سـماحة بقيّـة الله الأـعظم (عَجَّلَ اللهُ تعـالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفـّقَ الكـلَّ توفيقـاً متزائـداً لِإعانتهم – فى حدّ التـّمكـّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مرکز القائمیة اصفهان للبحوث والدراسات الکمبیوتریة
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹